حائز على جائزة نوبل في الأدب 1962



رواية

انطفاء القمر

جون شتاينبك

ترجمة: د. لطيفة الحاج

رواية

انطفاء القمر

جون شتاينبك

ترجمة: د. لطيفة الحاج

حائز على جائزة نوبل في الأدب 1962



عنوان الكتاب:
انطفاء القمر
اسم المؤلف:

جون شتاينبك
اسم المترجم:
د. لطيفة الحاج
التصنيف العمري:
E
الترقيم الدولي:
ISBN 978-9948-712-42-8
رقم إذن الطباعة:
MC-02-01-0158826

إلى بات كوفيتشي
محرر عظيم
وصديق نبيل

الفصل الأول

كل شيء انتهى يوم الأحد في الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة. احتُلَّت المدينة، وهُزم المدافعون عنها، وانتهت الحرب؛ إذ كان الغزاة قد تجهَّزوا لهذه الحملة بعناية، مثلما استعدوا للحملات الأكبر منها. في صباح يوم الأحد هذا، ذهب رجل البريد ورجل الشرطة في رحلة صيد، على متن قارب شراعي استعاراه من السيد **جورج كوريل**، صاحب المتجر الشهير. وعلى بُعد أميال عدة من الشاطئ، مرت بجوارهما سفينة نقل صغيرة تُقِل كتيبة عسكرية. وكانت السفينة مظلمة ومكدَّسة بالجنود، وتسير بهدوء. ولأن الرجلين كانا مسؤولين في المدينة، فقد انبريا لمواجهة السفينة، والتصدي لها. ولكنَّ السفينة كانت في وضع أفضل، واستطاعت الوصول إلى الميناء، والرسو فيه. عاد الرجلان إلى المدينة، فمُنِعا من دخول مكتبيهما في مبنى البلدية، وعندما أصرَّا على الدخول، ألقى الجنود القبض عليهما، وعَدُّوهما أسيرَي حرب، وأودعوهما في السجن.

لم تكن القوة المحلية المكوَّنة من اثني عشر جندياً، داخل المدينة حينئذٍ. بل كانت تشارك في مسابقة للرماية أُقيمت على بُعد ستة أميال من المدينة في مرج جميل يملكه السيد **كوريل**. الذي نصَب الأهداف، ووفَّر الذخيرة، وأعلن الجوائز المقرر تقديمها إلى الفائزين، وأعدَّ طعام الغداء للحضور. وعندما سمع جنود القوة المحلية أصوات الطائرات، وشاهدوا من مسافةٍ بعيدةٍ المظليين وهم يهطلون على مدينتهم، هبُّوا للدفاع عنها، وحاولوا الوصول إليها بسرعة. لكنَّ الغزاة تمكَّنوا من نصب رشاشات على الطريق لمنع تقدمهم. وعلى الرغم من قلة خبرة الجنود في الحرب، وعدم تجرُّعهم مرارة الهزيمة من قبلُ، فقد شرعوا في إطلاق النار من بنادقهم الصغيرة، وبادلهم الغزاة إطلاق النار من مدافعهم الرشاشة. ولم تمضِ إلا لحظات معدودة حتى قُتل ستة جنود من القوة، وتطايرت أشلاؤهم؛ وأُصيب ثلاثة آخرون بجروح بليغة. وفرّ الثلاثة الباقون إلى التلال ببنادقهم. وفي الساعة العاشرة والنصف، بدأت فرقة الغزاة الموسيقية بعزف موسيقى جميلة وعاطفية في ساحة المدينة. حيث وقف الأهالي بأفواه مفتوحة وعيون مصدومة يستمعون إلى تلك الموسيقى، ويحملقون في أصحاب الخوذ الرمادية ويحملون رشاشات صغيرة بين أيديهم.

وبحلول الساعة العاشرة وثمانٍ وثلاثين دقيقة، دُفن القتلى الستة، وطُويت مظلات الجنود، وتمَّ إيواء الكتيبة الغازية في مستودع بجوار الرصيف يملكه السيد **كوريل**. وكانت أرفف المستودع تحوي بطانيات وأسرّة تكفي الكتيبة. وفي الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة، تلقَّى العمدة **أوردن**، رئيس البلدية السابق، طلباً رسمياً لمقابلة العقيد **لانسر**، أحد ضباط الكتيبة الغازية، عند الحادية عشرة في قصر العمدة ذي الغرف الخمس. وكانت صالة استقبال القصر لطيفة ومريحة جداً رغم أن كراسيها المذهَّبة مغطاة بنسيج مهترئ. كانت الكراسي متناثرة في كل مكان، ومنتصبة كأنها عدد كبير من الخدم الواقفين الذين ليس لديهم ما يفعلونه. وكانت هنالك مدفأة من الرخام، تعلوها سلة صغيرة احمرَّ لونها من الحرارة برغم عدم وجود لهب. على الموقد تستقر جرة مزينة برسومات. وعلى أحد الرفوف وضعت مزهريات كبيرة، وساعة خزفية ملتوية تحيطها ملائكة، واكتسى ورق الجدران بلون أحمر داكن ذي نقوش ذهبية. أما خشب الصالة فقد كان أبيضَ جميلاً ونظيفاً، في حين رسمت لوحات الحائط بطولات مدهشة لكلاب ضخمة تواجه أطفالاً مهددين بالخطر. وبجوار المدفأة جلس الدكتور **وينتر**، مؤرخ المدينة وطبيبها العجوز ذو اللحية الخفيفة واللطيفة، يراقب بدهشةٍ إبهامَيه وهما يدوران فوق حجره. كان رجلاً بسيطاً إلى درجة أن الشخص العميق فقط يستطيع أن يلحظ عمقه. التفت إلى **جوزيف** خادم العمدة، ليتأكد إن كان قد لمح حركة إبهاميه غير الطبيعية، ثم سأله:

–هل تمَّ تحديد الموعد في الحادية عشرة؟

رد جوزيف مستغرباً:

-ذلك ما ورد في المذكرة.

-هل قرأتَها؟

-لا. ولكن صاحب السعادة قرأها لي.

أخذ **جوزيف** يتأكد من وضع كل كرسي من الكراسي المذهَّبة، ويتحقق إن كان أي كرسي قد تحرك من مكانه. وبدأ ينظر إلى قِطع الأثاث بتجَهُّم، يتعامل معها كما يتعامل مع شقي أو وقح، أو مغطى بالغبار. وفي عالم فيه العمدة **أوردن** قائداً للرجال، كان **جوزيف** زعيماً للأثاث والفضيات والأواني. وكان مسناً هزيلاً جاداً، حياته معقَّدة جداً، إلى درجة أن الرجل العميق فقط يمكنه أن يعرف أنه بسيط. لم يرَ في حركة إبهامي الدكتور **وينتر** أمراً غريباً، بل وجد ذلك أمراً مزعجاً. ويظن **جوزيف** أن هناك شيئاً مهماً يحدث، وذلك لوجود الجنود الأجانب في المدينة، وقتل وإصابة أفراد القوة المحلية. وسيكون لـ **جوزيف** رأيٌ بشأن ذلك عاجلاً أم آجلاً. لم يكن مستعداً لأي هزل ولا دوران إبهام أو هراء من قطع الأثاث. حرك الدكتور **وينتر** كرسيه بضع بوصات من مكانه، و**جوزيف** ينتظر بفارغ الصبر اللحظة التي يمكنه فيها إعادة الكرسي إلى مكانه مرة أخرى.

كرر الدكتور **وينتر**:

- الساعة الحادية عشرة، وبعدها سيكونون هنا، إنهم أناس يقدسون الوقت.

رد **جوزيف** من دون أن يستمع:

-نعم سيدي.

-شعب يقدس الوقت.

-نعم سيدي.

-الوقت والآلات.

-نعم سيدي.

-يركضون نحو مصيرهم وكأنه لن ينتظرهم. يدفعون العالم بقوتهم.

-حسناً سيدي.

قال **جوزيف**، لأنه ببساطة قد سئم من ترديد: "نعم سيدي".

لم يهتم **جوزيف** بالحديث، لأنه لم يتمكن من الإدلاء برأيه حول الأمر. فلو حاول فتح حوار في وقت لاحق من اليوم مع الطاهية آني، بقوله: "إنهم شعب يقدس الوقت"، فلن يكون لذلك أي معنى، لأن آني ستسأله: مَن؟ وتتبع سؤالها بـ:- لماذا؟"، وفي النهاية ستقول: "إنك تتفوه بكلام ليس له معنى يا **جوزيف**".

فعلها **جوزيف** مرات عدة، ينزل الدرج ناقلاً ملاحظات الدكتور **وينتر**، ولا يتغير ردّ آني عليه: "هراء". رفع الدكتور **وينتر** إبهاميه ورأى **جوزيف** يعاقب الكراسي.

- ماذا يفعل العمدة؟

-يرتدي ملابسه؛ استعداداً لملاقاة العقيد.

-ولماذا لا تساعده؟ سيخرج بمظهر غير لائق ما لم تكن معه.

-السيدة تساعده في ذلك، تريده أن يبدو في أفضل حالة، إنها.. -واحمر وجه **جوزيف** خجلاً- إنها تقص شعر أذنيه، وذلك يدغدغه. لن يسمح لي بفعل ذلك.

قال الدكتور **وينتر**:

-بالطبع يدغدغه.

رد **جوزيف:**

-السيدة أصرت على ذلك.

ضحك الدكتور **وينتر**، ونهض ثم مدّ يديه نحو النار، وتسلل **جوزيف** من خلفه بمهارة وأعاد الكرسي إلى مكانه الصحيح.

قال الدكتور **وينتر:**

– ما أروعنا! سقطت بلادنا، وقريتنا محتلة، والعمدة يستعد للقاء المنتصر، والسيدة تمسك برقبة العمدة المكافح لتقص شعر أذنيه.

-أصبح شعره أشعث جداً، وحاجباه كذلك، إن صاحب السمو يتضايق كثيراً من تقليم حاجبيه، حتى أكثر من قص شعر أذنيه، لأن ذلك يؤلمه، ولا أظن أن السيدة وحدها ستستطيع فعل ذلك.

قال الدكتور **وينتر:**

-لا تخشَ شيئاً. ستحاول.

-إنها تريده أن يبدو في أفضل حالاته سيدي.

أطلَّ من خلال نافذة الباب الزجاجية رأس تعلوه خوذة، وضج الباب بالطَّرْق. وكأنَّ ضوءاً دافئاً غادر الغرفة وحل مكانه لون رمادي، رفع الدكتور **وينتر** عينه إلى الساعة، وقال:

– يبدو أنهم حضروا باكراً. اسمحْ لهم بالدخول يا **جوزيف.**

هرع **جوزيف** إلى الباب وفتحه، دخل جندي يرتدي معطفاً طويلاً، يعتمر خوذة، ويحمل سلاحاً رشاشاً خفيفاً. ألقى نظرة سريعة على المكان، ثم تنحى جانباً، وظهر من خلفه ضابط يقف عند المدخل، يرتدي زياً عادياً وتظهر رتبته فوق كتفيه. دخل الضابط وحدَّق في الدكتور **وينتر**، كان أقرب إلى لوحة مرسومة لرجل إنجليزي نبيل، قامته منحنية، ووجهه أحمر، له أنف طويل، لكنه لطيف بعض الشيء. وكأنه غير سعيد بزيه العسكري مثل أغلب الضباط البريطانيين، لم يدخل المنزل، ولم يبعد عينيه عن الدكتور **وينتر**، ثم سأله:

– هل أنت العمدة **أوردن** سيدي.

ابتسم الدكتور **وينتر**، وقال:

– لا، لست هو.

-إذنْ أنت مسؤول، أو لك صفة رسمية؟

-لا، أنا طبيب البلدة، وصديق للعمدة.

-أين العمدة **أوردن.**

-كنت أرتدي ملابسي استعداداً للقائك، إذنْ أنت العقيد.

-لا، أنا النقيب **بنتيك.** وانحنى، وفعل الطبيب الشيء نفسه. بدا أن النقيب بنتيك متردد فيما سيقوله، ثم قال:

– سيدي، لا نقصد أية إهانة، ولكنْ تنص قواعدنا العسكرية على أن نفتش عن الأسلحة قبل دخول الضابط إلى مكان ما. وبعد أن أتمَّ جملته صرخ:

– أيها الرقيب.

فدخل الرقيب مسرعاً متجهاً إلى **جوزيف.** بدأ يتحسس جسده وجيوبه، ثم قال:

– لا شيء سيدي.

والتفت النقيب **بنتيك** إلى الدكتور **وينتر**، وقال:

– اعذرنا.

ثم اقترب الرقيب من الدكتور وينتر وبدأ يفتشه، لمس شيئاً مخبأً في الجيب الداخلي لمعطفه، وأخرج حقيبة جلدية سوداء صغيرة، وسلمها للنقيب بنتيك. فتح النقيب بنتيك الحقيبة، وأخرج منها أدوات جراحية بسيطة؛ مشرطين، وإبراً، ومشابك. فأعاد الحقيبة إلى الدكتور وينتر، الذي قال:

– كما ترى؛ فأنا طبيب ريفي؛ أُجبرت في أحد الأيام على القيام بعملية استئصال زائدة دودية بسكين المطبخ، ومنذ ذلك اليوم لا تفارقني هذه العدة أينما ذهبت.

قال النقيب بنتيك:

– أعتقد أن هناك أسلحة في المكان.

وأخرج كتاباً جلدياً صغيراً من جيبه.

قال الدكتور وينتر:

– أنت مجتهد وضليع.

–نعم، فأحد رجالنا كان يعمل في هذا المكان لفترة من الزمن.

–لا أعتقد أنك ستخبرني باسم هذا الرجل.

–لا أمانع، فقد انتهى عمله، ولا أظن أن ضرراً سيلحق بأحد إن صرحت باسمه. إنه السيد كوربل.

صرخ الدكتور وينتر مدهوشاً:

– جورج كوربل! لماذا فعل ذلك؟ مستحيل. لقد قدم الكثير لهذه المدينة، لماذا يفعل ذلك؟ لقد أقام مباراة في الرماية هذا الصباح، وتكفل بتوزيع الجوائز على المشاركين. ثم استوعب الأمر، خفَت صوته وهو يقول:

– أدركت الآن سبب إقامة هذه البطولة، أخيراً فهمت. أيفعلها جورج كوربل؟ يبدو هذا مستحيلاً.

فُتح باب من الجهة اليسرى، ودخل العمدة أوردن الصالة وإصبعه الصغيرة في أذنه اليمنى. يرتدي معطفه الرسمي الصباحي، وسلسلة حول عنقه، بشاربه الأبيض الكبير، وشاربين صغيرين آخرين فوق عينيه. يتضح أن شعره الأبيض قد تمَّ تسريحه للتو، وكانت بعض الشعيرات تكافح لتنفصل عن الأخريات لتنتصب مرة أخرى. بقي عمدة المدينة لمدة طويلة، حتى أصبح فكرة ونموذجاً لصورة العمدة، وأصبح الكبار عندما يشاهدون كلمة (عمدة) مطبوعة أو مكتوبة يتناهى إلى أذهانهم فوراً العمدة أوردن، وأصبح هو ومكتبه شيئاً واحداً، منحه مكتبه الكرامة، ومنح هو المكتب الدفء.

ظهرت من خلفه سيدة عدوانية صغيرة تملؤها التجاعيد، تعتقد أنها قد صنعت هذا الرجل من لا شيء، وتثق بأنه لو عاد بها الزمن لأمكنها القيام بعمل أفضل من هذا. لمرة أو مرتين في حياتها فهمت كل جزء منه، وتعرف ما تعرفه عنه، بتفاصيله الدقيقة والمعقدة. لم يفُتها شيء من شهيته أو ألمه أو إهماله وحقارته. لم تشعر بأنه يفكر فيها، أو يحلم أو حتى يرغب بها، وعلى الرغم من ذلك فقد عاشت سعادة لا توصف مرات عدة. دارت حول العمدة، ومثلما يُسحَب إبهام طفل من فمه، أمسكت السيدة بيده، وسحبت إصبعه من أذنه، ووضعت يده على جانب جسده، وقالت:

– لا أستطيع تصديق ادعائك أن الأمر مؤلم إلى هذه الدرجة.

ثم التفتت إلى الدكتور وينتر شاكية:

–لم يدعني أشذب له حاجبيه.

فقال العمدة أوردن:

– إنه مؤلم.

–حسناً، إذا أردتَ أن تظل بهذا الشكل، لا يمكنني فعل شيء حيال ذلك. ثم مدت يدها تعدل ربطة عنق العمدة التي

كانت مستقيمة ولا تحتاج إلى تعديل. ونظرت ناحية الدكتور وينتر:
– أنا سعيدة أنك هنا. ما عدد الأشخاص الذين سيحضرون؟
ثم رفعت رأسها ورأت النقيب بنتيك، وقالت:
– أوه، العقيد هنا.
–لا يا سيدتي، أنا هنا لأعد التجهيزات لزيارة العقيد فحسب. أيها الرقيب.
هرع الرقيب الذي كان يقلب الوسائد، وينظر خلف الصور مسرعاً إلى العمدة أوردن، وبدأ يتحسس ويفتش جيوبه، فقال النقيب بنتيك:
– عذراً سيدي، فهذه هي القواعد.
ثم ألقى النقيب بنتيك نظرة أخرى على الكتاب الصغير الذي بين يديه، وأتبع:
– يا صاحب السعادة، إنك تملك أسلحة نارية في المكان، قطعتين كما أتوقع.
قال العمدة أوردن:
– أسلحة نارية؟ هل تقصد مسدسات؟ نعم أملك بندقية، وأخرى رياضية. كما تعلم لم أعد أذهب للصيد منذ فترة، دائماً ما أفكر في الأمر، وعندما يبدأ الموسم أتكاسل عن الذهاب، لم أعد أستمتع بالأمر كما في السابق.
وبجدية سأل النقيب بنتيك:
– أين هذه المسدسات، سعادتك؟
فرك العمدة أوردن خده يحاول أن يتذكر.
–لماذا؟ أظن.. –ثم التفت إلى السيدة– ألم تكن المسدسات مع العصي خلف الخزانة الموجودة في غرفة النوم؟
ردت السيدة بضيق
–نعم؛ وكل غرزة في الملابس الموجودة في الخزانة تفوح منها رائحة الزيت بسبب مسدساتك. أرجو أن تجد لها مكاناً آخر.
صرخ النقيب بنتيك:
– أيها الرقيب.
فركض الرقيب على الفور إلى غرفة النوم، واعتذر النقيب منهم:
– أنا آسف، إنها مهمة غير مريحة.
وعاد الرقيب يحمل بندقية بماسورتين، وأخرى رياضية جميلة بحزام للكتف، وأسندهما على جانب مدخل الباب.
فقال النقيب بنتيك:
– هذا كل ما في الأمر، شكراً يا صاحب السعادة، شكراً سيدتي.
ثم استدار ناحية الدكتور وينتر مع انحناءة بسيطة.
–شكراً لك يا دكتور. الآن بإمكان العقيد لانسر الدخول، صباحكم جميل.
وخرج من الباب يتبعه الرقيب حاملاً البندقيتين في يد، وفي الأخرى رشاشه الآلي.
قالت السيدة:
– لوهلة اعتقدت أنه العقيد، إنه شاب وسيم.
سخر الدكتور وينتر:
– لا؛ إنه هنا لحماية العقيد فقط.

–ما عدد الضباط الذين سيحضرون؟

ونظرت إلى **جوزيف**، الذي كان يتنصَّت من دون أن يشعر بالخجل. فهزت رأسها آسفة، وعقدت حاجبيها، فعاد إلى مهامه، يزيل الغبار من المكان، وعادت تسأل:

– كم ضابطاً سيحضر بحسب علمكم؟

وبغضبٍ سحب الدكتور **وينتر** كرسياً، وجلس عليه، ثم قال:

– لا أعرف.

فنظرت غاضبة إلى **جوزيف**:

– لقد تحدثنا عن هذا الأمر من قبل. هل نقدم لهم الشاي أو النبيذ؟ إذا فعلنا ذلك، فإننا لا نعرف عددهم، وقد نُحرج؛ وإذا لم نقدم لهم شيئاً، فسيصيبنا الحرج أيضاً.

هزّ الدكتور **وينتر** رأسه وابتسم.

–لا أعرف؛ فقد مر وقت طويل على غزونا لأحد، وغزو الآخرين لنا، ولذلك لا أعرف ما هو اللائق فعله.

وضع العمدة **أوردن** إصبعه في أذنه التي تحكُّه، وقال:

– حسناً، لا أعتقد أنه ينبغي لنا فعل ذلك، لا أعتقد أن ذلك سيعجب الناس، وأنا أيضاً لا أريد شرب الخمر معهم، ولا أعرف السبب.

سألت السيدة الدكتور **وينتر**:

– ألم يكن الناس في السابق، أي القادة، يتبادلون التهاني، ويتناولون النبيذ؟

أومأ الدكتور **وينتر** برأسه:

– نعم. قد فعلوا ذلك. ربما كان الأمر مختلفاً، فالملوك والأمراء كانوا يتخذون الحرب لعبة كما يتخذ الإنجليز الصيد لعبة. بعد قتل الثعالب يجتمعون ويتحلقون حول مائدة الإفطار. لكنَّ العمدة **أوردن** قد يكون محقاً، فقد يغضب الناس إن علموا أن العمدة قد شرب الخمر مع الغزاة.

–أخبرتني آني أن الناس في المدينة يستمعون إلى الأغاني الآن، فلماذا لا يكون بوسعنا نحن أيضاً المحافظة على تحضرنا، والشرب مع الضيوف؟

ركز العمدة **أوردن** نظره على السيدة، وقال بحدة:

– سيدتي؛ بعد إذنك لن نشرب الخمر؛ فالناس في حيرة الآن. لقد عاشوا في سلام لفترة طويلة جداً، ولم يعودوا يؤمنون بالحرب. سيتعلمون بعد فترة، ولن يرتبكوا كما يفعلون الآن. لقد انتخبوني حتى لا يُصابوا بالارتباك، وفي هذا الصباح قُتل ستة من شبان البلدة، ولا أظن أننا سنتناول وجبة الإفطار بعد انتهاء لعبة الصيد. فالحرب ليست رياضة.

انحنت السيدة، لأنها أدركت أنه في هذه اللحظة لا يتصرف بصفته زوجاً، بل بصفته عمدة، وتعلمت ألا تخلط بين الأمرين. نظر العمدة **أوردن** إلى ساعته، ودخل **جوزيف** يحمل كوباً صغيراً من القهوة السوداء. تناوله من دون وعي وارتشفه، وشكر **جوزيف**، ثم قال للدكتور **وينتر** آسفاً:

– يجب أن أستوضح الأمر. هل تعلم ما عدد الرجال الذين غزونا؟

–عددهم قليل، قد لا يتجاوز مئتين وخمسين جندياً، ولكن كلهم يمتلكون رشاشات صغيرة.

ارتشف العمدة القهوة، وسأل:

– ماذا عن بقية أجزاء البلاد؟

رفع الدكتور **وينتر** كتفيه، ثم خفَضَهما؛ فتابع العمدة يائساً:

-ألم تكن هناك أية مقاومة في أي مكان؟
رفع الدكتور كتفيه مرة أخرى، وقال:
- لا أعرف. قُطعت الأسلاك، ولا نعرف أية أخبار جديدة.
-وما أخبار أبنائنا وجنودنا؟
-لا أعرف.
قاطعهما جوزيف.
-لقد سمعت أن... أقصد أن آني سمعت.
-ما الأمر يا جوزيف؟
-قُتل ستة رجال بالرشاشات، وسمعت آني أنه قد جُرح ثلاثة، وتمَّ أسرهم.
-ولكنهم كانوا اثني عشر جندياً.
-سمعت آني أن ثلاثة قد تمكنوا من الهرب.
التفت العمدة أوردن غاضباً، وقال:
-ومَن هم الذين هربوا؟
-لا أعلم يا سيدي؛ فـ آني لم تسمع ذلك.
حركت السيدة إصبعها على الطاولة تبحث عن ذرة من الغبار، وقالت:
-جوزيف، عليك أن تبقى قريباً من جرس الاستدعاء عندما يأتون، فقد نحتاج إليك. بدّل هذا المعطف الذي ترتديه، وارتدِ الآخرَ ذا الأزرار. (فكرت قليلاً) جوزيف، بعد أن تسمع ما يطلب منك عليك مغادرة الغرفة فوراً، إن وقوفك واستماعك لما يدور في الغرفة قد يترك انطباعاً سيئاً عنا. إنه أمر غير متحضّر بتاتاً.
-حاضر سيدتي.
-لن نقدم النبيذ لهم يا جوزيف. ولكنْ بإمكانك أن تقدم لهم السجائر الموجودة في العلبة الفضية الصغيرة، ولا تشعل عود الثقاب في قاعدة حذائك حين تقدم السجائر للعقيد. بل أشعله بعلبة الثقاب.
-حاضر سيدتي.
فتح العمدة أوردن أزرار معطفه، وأخرج ساعته، وعاين الوقت فيها، ثم أعادها، وأغلق أزرار معطفه مرة أخرى بصورة خطأ. زر أعلى من مكانه، فهرعت إليه السيدة، وأعادت الأزرار إلى مكانها الصحيح. سأله الدكتور وينتر عن الساعة.
-إنها الحادية عشرة إلا خمس دقائق.
-إنهم أناس يقدسون الوقت، سيكونون هنا في الموعد المحدد، هل تريدني أن أغادر؟
علت الدهشة وجه العمدة أوردن:
- لا، لا تذهب. (ضحك بهدوء) أنا خائف قليلاً، لست خائفاً، لكنني أشعر بالتوتر. لم نهزم قطُّ منذ مدة طويلة.
قطع حديثه صوت الموسيقى التي تنبعث من الفرقة، واستداروا إلى حيث الصوت. قالت السيدة:
- ها قد أتوا. أتمنى ألا يتزاحموا في الغرفة في وقت واحد. الصالة ليست كبيرة.
قال الدكتور وينتر ساخراً:
- هل تفضل السيدة قاعة المرايا في قصر فرساي؟
عضَّت شفتيها، ونظرت حولها وهي تفكر في الغزاة، ثم قالت:

– إنها غرفة صغيرة جداً.

ارتفع صوت الموسيقى، ثم خفت، وسمع طرق خفيف على الباب:

– ومَن هذا الذي يزورنا الآن؟ **جوزيف**، افتح الباب واطلب من الزائر أن يعود لاحقاً؛ فنحن مشغولون جداً الآن.

عاد الطَّرْق، ففتح **جوزيف** فرجة صغيرة في الباب، ثم وسّعها. ظهر شكل رمادي يرتدي خوذة وقفازين، وقال:

– أقدم لكم تحيات العقيد **لانسر**، إنه يطلب مقابلة صاحب السعادة.

فتح **جوزيف** الباب على مصراعيه، ودخل الرجل. قلَّب نظره في المكان، وانتحى جانباً، ثم صرخ:

– العقيد لانسر.

دخل الغرفة رجل آخر يرتدي خوذة، رتبته على كتفيه. تبعه رجل قصير يرتدي بذلة سوداء، وكان العقيد في منتصف العمر، رماديّاً قاسي المظهر، ومرهَقاً، كتفاه مربعتين مثل الجندي. ولكن نظرة عينيه لم تكن تلك النظرة الفارغة للجندي العادي. وكان الرجل القصير أصلع بخدين ورديين وعينين سوداوين وفم مثير. خلع العقيد **لانسر** خوذته، وانحنى قائلاً:

–يا صاحب السعادة.

ثم انحنى للسيدة:

– سيدتي. من فضلك أيها العريف؛ أغلق الباب.

فأغلق **جوزيف** الباب بسرعة، ونظر إلى الجندي وكأنه قد انتصر عليه. عاين العقيد الطبيب مستفهماً؛ فانبرى العمدة **أوردن** قائلاً:

– إنه الدكتور **وينتر**.

سأل العقيد **لانسر**:

– أله صفة رسمية، أم أنه أحد المسؤولين؟

–طبيب سيدي، وأضيف أنه المؤرخ المحلي.

انحنى العقيد لانسر قليلاً، ووجه حديثه إلى الدكتور **وينتر**:

– لا أريد أن أكون وقحاً معك دكتور **وينتر**، ولكن ربما تضاف صفحة في تاريخك.

ابتسم الدكتور **وينتر**:

– وربما صفحات.

التفت العقيد **لانسر** إلى رفيقه، وقال:

–أعتقد أنك تعرف السيد **كوريل**.

قال العمدة **أوردن**:

جورج كوريل؟ طبعاً أعرفه، كيف حالك **جورج**؟

بحزمٍ ورسميةٍ قاطع الدكتور **وينتر** الحديث:

– يا صاحب السعادة، صديقنا **جورج كوريل** هو مَن جهز المدينة ليتم غزوها؛ و**جورج كوريل** أرسل جنودنا إلى التلال، وضيفنا على العشاء اليوم **جورج كوريل**، هو الذي أعد قائمة بكل سلاح ناري في المدينة. إنه صديقنا **جورج كوريل**.

ردَّ السيد **كوريل** غاضباً:

– لقد عملتُ بما أؤمن به، وهذا أمر مشرف.

تدلى فم العمدة **أوردن**، ونظر في حيرة وعجز إلى الدكتور **وينتر** والسيد **كوريل**، وقال الدكتور **وينتر**:

– هذا ليس صحيحاً يا **جورج**، لقد جلست على مائدتي، وشربنا الخمر معاً. لماذا ساعدتني في التخطيط للمستشفى؟.
ثبَّت الدكتور **وينتر** نظراته على السيد **كوريل**، الذي بادله نظرة عدوانية، ثم عمّ الصمت. واشتدت أعصاب العمدة، وتيبَّس جسده، فالتفت إلى العقيد **لانسر**، وقال:
– لا أرغب في الحديث بوجود هذا الرجل.
قال السيد **كوريل**:
– لديّ الحق بالوجود هنا، أنا جندي مثل البقية، ولكني لا أرتدي زياً رسمياً.
–لا أرغب في التحدث بوجود هذا الرجل.
قال العقيد **لانسر**:
– عليك أن تغادر سيد **كوريل**.
–لديّ الحق بالوجود هنا.
فاحتدَّ العقيد **لانسر**:
– غادر المكان يا سيد **كوريل**. أترفض أمري؟ هل رتبتك العسكرية أعلى من رتبتي؟
–لا يا سيدي. سأغادر.
فقال العقيد **لانسر**:
– لو سمحت يا سيد **كوريل**.
نظر السيد **كوريل** بغضب إلى العمدة **أوردن**، ثم استدار، وغادر المكان مسرعاً.
ضحك الدكتور **وينتر**، وقال ساخراً:
–هذا أمر جيد كفاية لفقرة في تاريخي.
فنظر إليه العقيد **لانسر** نظرة جامدة ولم يعلق. انفتح الباب الذي على اليمين، وخرجت آني ذات الشعر الأشقر والعينين الحمراوين غاضبةً، وقالت:
– هناك جنود يقفون في الشرفة الخلفية سيدتي.
فردَّ العقيد **لانسر**:
– لا تخافي. لن يدخلوا. إنها مجرد إجراءات عسكرية.
ردَّت السيدة ببرود:
– آني. إن كان لديك شيء تريدين قوله، فاطلبي من **جوزيف** أن يوصل الرسالة إلينا.
–لم أكن أعرف ذلك، لكنهم حاولوا الدخول إليَّ بعدما شموا رائحة القهوة.
–آني!
–حاضر سيدتي.
وانسحبت من المكان.
قال العقيد لانسر:
–هل تسمح لي بالجلوس؟ مر وقت طويل لم ننَمْ خلاله.
وكأن العمدة **أوردن** قد استيقظ من النوم لتوه، وقال:
–نعم، بالطبع يمكنك الجلوس.

نظر العقيد للسيدة فجلست، ثم جلس وقد بدا الإرهاق عليه، وظل العمدة **أوردن** واقفاً وهو في حالة بين اليقظة والنوم، وقال العقيد **لانسر**:

– كل ما نريده أن نتعايش مع بعضنا بعضاً بأفضل ما نستطيع، وبأقل قدر من الاحتكاكات، كما ترى يا سيدي، فإن هذا يشبه مشروعاً تجارياً أكثر من أي شيء آخر. نحتاج إلى منجم الفحم الذي لديكم، وصيد الأسماك.

قال العمدة:

– لا أعرف الأخبار، ما حال بقية البلاد؟

–لقد تم الاستيلاء عليها كلها، لقد خططنا للأمر بشكل جيد.

–ألم توجد مقاومة في أي مكان؟

نظر إليه العقيد **لانسر** مشفقاً:

– وددت لو لم يحدُث ذلك، كانت هناك مقاومة بسيطة، لكنها لم تتسبب إلا بإراقة الدماء. أعود وأكرر، خططنا للأمر بشكل جيد، وعناية شديدة.

تمسك العمدة **أوردن** بوجهة نظره:

– ذلك يعني أنه كانت هنالك مقاومة.

–نعم، ولكنها حماقة، مثل ما حدث هنا تماماً، تم تدميرها فوراً، لقد كان أمراً مؤسفاً وغبياً.

أدرك الدكتور **وينتر** القلق الذي انتاب العمدة **أوردن** بشأن هذا الأمر فقال:

–نعم قد تكون حماقة، لكنهم في النهاية قاوموا.

قال العقيد **لانسر**:

– أعداد قليلة، وتمت تصفيتهم، أما أغلبية الناس فإنهم هادئون.

قال الدكتور **وينتر**:

–ما زال الناس غير مستوعبين ما حدث.

قال العقيد **لانسر**:

– سيتفهون الأمر، ولن يرتكبوا حماقات أخرى.

ثم صفا صوته، وأصبح أكثر حيوية.

–سيدي، سأدخل مباشرة في العمل، فأنا متعب جداً، ولكنْ قبل أن أنام يجب أن أتخذ الترتيبات. (اعتدل في جلسته) أنا مهندس أكثر من كوني جندياً، والأمر برمته عمل هندسي أكثر من كونه غزواً. يجب استخراج الفحم من باطن الأرض وشحنه، ولدينا فنيون سيتابعون العمل، ولكن على السكان المحليين أن يستمروا في عملهم في المنجم. أتمنى أن يكون ما قلته واضحاً. لا أريد أن أكون قاسياً وصارماً.

فقال العمدة **أوردن**:

– كلامك واضح، ولكن ماذا إن رفض الناس العمل في المنجم؟

– آمل ألا يحدث ذلك، عليهم العمل، لأننا نريد الفحم.

– وإن رفضوا؟

– عليهم أن يعملوا في المنجم، فهم خاضعون لنظامنا الآن، ولا يرغبون بالتعرض للمتاعب.

سكت العقيد **لانسر** ينتظر رد العمدة **أوردن**، وعندما لم يأتِ رد منه قال:

– أليس كذلك يا سيدي؟

أدار العمدة **أوردن** سلسلته، وقال:

– لا أعرف يا سيدي، لقد كانوا خاضعين لنظام حكومتهم، ولا أعرف كيف سيصبحون تحت حكمك. إنها أرض لم تطأها أقدام الغزاة من قبل، وبنينا حكومتنا فيها منذ أربعمئة عام.

– نعرف ذلك، ولهذا ستبقى حكومتك، وتظل أنت العمدة، تصدر الأوامر وتعاقب وتكافئ. وبهذا لن يسببوا مشكلات.

التفت العمدة **أوردن** إلى الدكتور **وينتر**:

– ما رأيك؟

– لا أعلم، سيكون من المثير أن نرى ما سيحدث، ولكني أتوقع أن تندلع مشكلات. لأن هذا الشعب سيعاني الأمرَّين.

– ولا أنا. (والتفت العمدة **أوردن** إلى العقيد **لانسر**) سيدي أنا واحد من هذا الشعب، وأصدقك القول إني لا أعرف ما ستكون ردة فعلهم. ربما تدرك ذلك سيادة العقيد، أو قد يكون الأمر غريباً عليك وعلينا أيضاً. قد يقبل بعض الناس القادة المعينين، ولكنني منتخَب. انتخبني ناس، وبإمكانهم خلعي، وقد يفعلون ذلك إذا رؤوا أنني أتعاون معكم أو أستسلم، بصراحة أنا لا أستطيع التنبؤ بردة فعلهم، أو ما يمكن أن يحدث.

قال العقيد **لانسر**:

– ستقدم لهم خدمة إن جعلتهم خاضعين للنظام.

– خدمة؟

– نعم خدمة، ويقع على عاتقك واجب حمايتهم من الأذى. إذا تمردوا فسيكونون معرضين للخطر. لا بد أن نحصل على الفحم، وقادتنا لا يخبروننا عن كيفية القيام بذلك، بل يأمروننا بأن نحصل عليه. وعليك أن تحمي شعبك، لذلك يجب عليك أن تجعلهم يعملون لتبقيهم في أمان.

سأل العمدة **أوردن**:

– ولكنْ لنفترض أنهم لم يرغبوا بأن يكونوا في أمان.

– في هذه الحالة يجب عليك أن تفكر نيابة عنهم.

قال العمدة **أوردن** مفتخراً:

– إن شعبي لا يحب أن يفكر أحد نيابة عنهم. قد يكونون مختلفين عن شعبك، صحيح أنني مرتبك الآن وفي حيرة من أمري، لكنني متأكد مما قلت عنهم.

ولج **جوزيف** الغرفة مسرعاً، ووقف وهو منحنٍ يريد أن يتكلم، صرخت السيدة:

– ماذا هناك يا **جوزيف**؟ أحضر علبة السجائر الفضية.

– أعتذر سيدتي، أعتذر يا صاحب السعادة.

سأله العمدة عن سبب مجيئه وعما يريده.

– إن آني غاضبة يا سيدي.

سألته السيدة:

– ماذا هناك؟

– إنها متضايقة من وقوف الجنود في الشرفة الخلفية.

سأل العقيد **لانسر** إن كانوا يسببون مشكلات.

– إنهم ينظرون إليها عبر الباب، وهي تكره ذلك.

– إنهم ينفذون الأوامر، ولا يسببون أضراراً.

– حسناً، إن آني تكره أن يحدق أحد بها.

قالت السيدة:

– أخبر آني يا **جوزيف** أن تعتني بنفسها.

– حاضر سيدتي.

وخرج. بدأت عينا العقيد **لانسر** تغمضان من شدة الإرهاق، وقال:

– هنالك أمر آخر أود أن أضيفه يا صاحب السعادة، هل تسمح لي ولطاقمي بالبقاء عندكم؟

فكر العمدة **أوردن** للحظة، ثم أجاب:

– إنه منزل صغير، هنالك أماكن أخرى أكبر اتساعاً وأكثر راحة.

توقف **جوزيف** أمام العقيد **لانسر**، وفتح له الصندوق الفضي للسجائر، فأخذ العقيد سيجارة وأشعلها **جوزيف** له، مجّ دخانها ونفثه.

– الأمر ليس كما تظن، فقد وجدنا أن العاملين عندما يبقون تحت سلطة حكومتهم المحلية يكونون أكثر هدوءاً وتقبلاً للواقع.

– أتقصد أنهم يشعرون بأن هناك تعاوناً ضمنياً.

– أعتقد ذلك.

أُسقط في يد العمدة، ونظر يائساً إلى الدكتور **وينتر** الذي ابتسم هازئاً، فقال العمدة بهدوء:

– هل أستطيع رفض هذا الطلب؟

– أعتذر؛ فهذه أوامر القيادة.

– الناس لن يحبوا ذلك.

– دائماً ما تُرجِع الأمر إلى الشعب. يجب أن تعلم أنهم منزوعو السلاح، وليس لهم رأي في ذلك.

هزّ العمدة **أوردن** رأسه:

– أنت لا تعرفهم يا سيدي.

ثم تناهى إلى مسامعهم صوت صراخ امرأة غاضبة وارتطام، فدخل **جوزيف** الصالة مسرعاً، وقال:

– لقد جن جنون آني، إنها تصب الماء المغلي على الجنود.

سمعوا أوامر تُلقى خلف الباب، ووَقْع أقدام كثيرة، فوقف العقيد **لانسر** متثاقلاً، ونظر إلى العمدة:

– ألا تستطيع فرض السيطرة على خدمك؟

ابتسم العمدة **أوردن**:

– سلطتي ضعيفة عليها، فهي لا تطبخ الطعام جيداً إلا إن كانت بمزاج جيد. لذلك أخشى إغضابها. (سأل **جوزيف**) هل أصيب أحد ما؟

– الماء كان مغلياً يا سيدي.

قال العقيد **لانسر**:

– كل ما نريده هو القيام بعملنا، إنه عمل هندسي كما ذكرت لك، وعليك أن تفرض سيطرتك على الطاهية.

– لا أستطيع ذلك، ستستقيل إن فعلت.

– لا يمكنها الاستقالة، فهذه حالة طارئة.

تدخل الدكتور وينتر:

– إذنْ ستبقى تصب الماء المغلي عليهم، وعليك أن تتقبل ذلك.

فُتح الباب، وأطل جندي منه:

– هل بإمكاني القبض عليها سيدي؟

سأل العقيد **لانسر**:

– هل أُصيب أحد؟

– أُصيب رجل بحروق، وتعرض آخر للعض. إننا نمسك بها الآن.

بدا العقيد **لانسر** عاجزاً، وقال:

– أطلقوا سراحها، وغادروا المكان. ابتعدوا عن الشرفة.

– حاضر سيدي.

وأغلق الجندي الباب.

قال العقيد **لانسر**:

– بإمكاني أن أطلق النار عليها، كما أني أستطيع حبسها على ما فعلته.

قال العمدة **أوردن**:

– عندئذٍ لن يكون لدينا طباخ في المنزل، ولن نحصل على الطعام.

وجَّه العقيد الحديث إلى العمدة:

– إننا مجبرون على التعامل معكم ومع شعبكم، والتعايش معكم.

نهضت السيدة مغادرةً:

– اعذُرني يا سيدي، سأذهب للاطمئنان على آني، أخشى أن يكونوا قد آذوها.

وقف العقيد **لانسر**:

– لقد أخبرتك أني متعب جداً يا سيدي، يجب أن أنعم بقسط من النوم، أرجو أن تتعاونوا معنا لمصلحة الجميع.

لم ينبس العمدة ببنت شفة. فأكمل العقيد حديثه:

– ذلك من أجل المصلحة العامة، هل تستطيع فعل ذلك؟

قال العمدة:

– إنها قرية صغيرة، ولا أعرف ما الذي سيحصل، الناس مرتبكون وفي حيرة من أمرهم، وأنا كذلك.

– ولكنك ستبذل جهدك للتعاون معنا.

– لا أعرف، عندما يقرر أهالي المدينة ما يريدون فعله سأكون في صفهم.

– ولكنك تملك السلطة.

ابتسم العمدة **أوردن**:

– قد لا تصدق ما سأقوله، لكنه الواقع. إن السلطة موجودة في المدينة، ولكني لا أعرف كيف أو لماذا، وبذلك لا نستطيع التصرف بسرعة مثلكم. لكن بعد أن يتم تحديد الاتجاه قد نعمل معاً. أنا في حيرة ولا أتوقع ما سيحدث، أو ما الذي سيختاره الناس.

قال العقيد **لانسر** وقد بدا الإرهاق عليه:

– آمل أن نستطيع التعايش معاً، حينئذٍ سيكون الأمر سهلاً علينا جميعاً. وأتمنى أن تكون ثقتنا بك في محلها. لا أريد التفكير فيما سيقوم به الجيش للمحافظة على النظام.

لم يعلق العمدة.

– أتمنى أن تكون أهلاً للثقة التي منحناك إياها.

قال العمدة **أوردن** بعد أن وضع إصبعه في أذنه وبدأ بهزها:

– لا أعرف.

دخلت السيدة الغرفة، وقالت:

– إن آني غاضبة جداً، وهي في الغرفة المجاورة تكلم **كريستين**، و**كريستين** غاضبة مثلها.

قال العمدة **أوردن**:

كريستين طاهية ممتازة؛ إنها أفضل من آني.

الفصل الثاني

أقام العقيد **لانسر** مقر القيادة في الطابق العلوي لقصر العمدة **أوردن**، ووضع فيه خمسة موظفين. كان منهم الرائد **هنتر**، رجل ضئيل مولع بالأرقام ويعتمد عليها في حياته. إنه يقوم بعدّ الرجال، فهم إما أن يكونوا أرقاماً صحيحة يثق بها، وإما أن يكونوا غير ذلك، فلا يصلحون للعيش. كما يعتبر رجاله أرقاماً أيضاً، يضيفهم ويطرحهم ويضربهم، كان الرائد **هنتر** مهندساً، وحالة الحرب جعلته قائداً للرجال. ففي أية حالة غيرها لن يفكر أحد في جعله قائداً. كان خبيراً في الحساب، وليس عالم رياضيات، لم يهتم قطُّ بأي حس فكاهي، أو بالموسيقى أو التصوف أو غموض الرياضيات. قد يختلف الناس في أطوالهم وأوزانهم وألوانهم مثل الاختلاف بين الرقمين 6 و8، لكن هنالك فروقاً طفيفة أخرى. تزوج مرات عدة، لكنه لا يزال يجهل سبب توتر زوجاته وانفعالهنَّ قبل أن ينهين العلاقة معه.

يقدس النقيب **بنتيك** العائلة، ويحب الكلاب، والأطفال، وعيد الميلاد. كبير في السن إلى الحد الذي لا يسمح له بأن يقبع في هذه الرتبة إلى الآن. وذلك لضعف طموحه، كان قبل الحرب ينظر بإعجاب إلى رجل الريف البريطاني، أثر ذلك فيه، فكان يرتدي ملابس إنجليزية، ويربي كلاباً إنجليزية، ويدخن غليوناً إنجليزياً. يجلب تبغاً خاصاً له من لندن، ويشترك في المجلات التي تهتم بالحدائق والبستنة، وتتناول مزايا الكلاب الإنجليزية وكلاب غوردون سيتر؛[1] ويقضي إجازاته في ساسكس،[2] ويشعر بالسعادة حين يلتقي أحداً في بودابست أو باريس، ويظنه إنجليزياً. في الظاهر يبدو أن الحرب غيَّرت كل ذلك، لكنه لم يستطع أن يتخلى عن عادات مارسها وقتاً طويلاً، مثل التدخين من الغليون، وحمل العصا. وقبل خمس سنوات أرسل إلى صحيفة التايمز، مقالاً يتناول موت العشب في ميدلاندز، وقَّعه باسم السيد **إدموند تويتشل**، ونشرته الصحيفة.

إذا كان النقيب **بنتيك** كبيراً في السن إلى درجة تجعله غير مؤهل لأن يكون في رتبة نقيب، فإن النقيب **لوفت** كان شاباً صغيراً، ويمثل صورة النقيب أحسن تمثيل. يعيش ويتنفس كقائد، وحياته محصورة في العسكرية. دفعه طموحه الكبير إلى صعود الدرجات، وتخطي الرتب. فارتفع مثل الكريمة على سطح الحليب، ينقر كعبيه ببراعة كما تفعل راقصة. يعرف كل أنماط المجاملات العسكرية ويستخدمها كلها. ويخافه الجنرالات، لأنه يعرف سلوك الجندي أفضل منهم، ويؤمن بأن الجندي هو التطور الأسمى للحيوان. وإذا فكر في الرب، فإنه يفكر فيه كجنرال عجوز متقاعد شاب شعر رأسه. يعيش على ذكريات المعارك، ويضع الأكاليل على قبور مساعديه مرات عدة في السنة. يثق ثقة عمياء بأن الزي العسكري يفتن كل النساء. وإذا استمرت الأمور معه على حالها، فإنه سينال رتبة العميد في الخامسة والأربعين من عمره، وتنتشر صوره في الصحف، وحوله نساء طويلات يرتدين قبعات من الدانتيل.

أما الملازمان **براكل** و**توندر**، فهما طالبان جامعيان، شابان مغروران، يتبنيان سياسات العصر، ويؤمنان بتطبيق النظام الجديد. يريان أن مبتكره رجل عبقري، فاتبعاه بلا تفكير. كانا عاطفيين، تثيرهما المشاعر، ومن ذلك يذرفان الدموع، ويغضبان بسرعة. يضع الملازم **براكل** في قاعدة ساعة الجيب الخاصة به، قطعة زرقاء من القماش فيها خصلة من الشعر. أحياناً يشتبك الشعر بأجزاء الساعة الميكانيكية، فتتوقف عن الدوران، لذلك ارتدى ساعة في معصمه ليعرف الوقت. وبرغم مرحه، فإنه يتجهَّم، ويفكر مثل قائد. شقّ وحطم لوحات عدة، فأكثر شيء يكرهه هو الفن الرديء. يقترح عليه أصدقاؤه في الملهى الليلي الذي يسهر فيه أن يكون فناناً، وذلك بعد أن يرسم لهم لوحات بأقلام الرصاص. كان الملازم **براكل** يغار على أخواته الشقراوات، ويسبب المشكلات حين يشعر أنهن تعرضن للإهانة أو التحقير. يثير ذلك قلقهن. فقد يغضب من أهانهن، ويثبت لأخيهن بالأدلة ما يقمن بفعله، ويقعن في مشكلة حقيقية معه. تعجبه شقيقة الملازم **توندر**، الشقراء الممتلئة، فيقضي وقت فراغه محاولاً إغراءَها. تتهرب هي منه، وتعمل على إغواء كبار السن لميلها إليهم، ولأنهم لا يعبثون بشعرها كما يفعل الملازم **براكل**.

الملازم **توندر** شاعر ناقم على الحياة. يحلم بالحب المثالي بين شاب نبيل وفتاة فقيرة. رومانسي يائس يرتكز على رؤيته للحياة، يتمتم أحياناً بأبيات شعرية لنساء يراهن في خياله. يتمنى الموت في ساحة المعركة، ويتخيل والديه يبكيان عليه،

ويتصور القائد وهو يحاول التماسك برغم حزنه. وكونه شاعراً، فقد تخيل مشهد موته، حيث تنعكس أشعة شمس غاربة على معدات عسكرية محطمة، ويحيط به رجاله صامتين ومنكسي الرؤوس، إلاهات الموت –أمهات وعشيقات– ينتظرنه فوق سحابة ضخمة. ويركضن بصدور عامرة فرحاً بلقائه، وموسيقى **فاغنر** تنساب في خلفية المشهد. وقد أعد كلماته الأخيرة.

هؤلاء هم الرجال الخمسة العاملون في مقر القيادة الذي أعده العقيد **لانسر** في الطابق العلوي لقصر العمدة. يلهون بالحرب مثلما يلعب الأطفال. يعاملها الرائد **هنتر** كمسألة حسابية يجب عليه حلها ليعود ويجلس بجوار مدفأته. ويعدها النقيب **لوفت** المهنة المناسبة لشاب تربى تربية جيدة. يراها الملازمان **براكل** و**توندر** حلماً لا حقيقة فيه. تُعدّ حربهم حتى الآن لعبة بأسلحة جيدة، وتخطيط متقن. وفي مواجهة أعداء غير مسلحين، ولا يملكون خططاً، لم يخسروا معركة، ولم يلحق بهم أذى كبير. وكحال الجميع تحت الضغط، قد يصيبهم الجبن أو تواتيهم الشجاعة، إلا العقيد **لانسر** الذي كان يدرك معنى الحرب، وتأثيراتها على المدى الطويل. قضى العقيد **لانسر** عشرين عاماً في بلجيكا وفرنسا، يريد ألا يفكر فيما هو متيقن منه. الحرب خيانة وكراهية، الحرب عملية يظهر فيها قادة غير أكْفاء. الحرب تعذيب وقتل، الحرب مرض وتعب. وإذ تنتهي، فلا يتغير شيء، سوى تعب جديد وكراهية جديدة. يحدّث العقيد **لانسر** نفسه كجندي، وعليه تنفيذ الأوامر من دون أن يفكر أو يتساءل. يحاول تجنب الذكريات المؤلمة للحرب السابقة. ويريد أن يتغافل عن يقينه بأن هذه الحرب ستكون كذلك. يردد في كل يوم خمسين مرة: هذه الحرب ستكون مختلفة.

في المسيرات وبين الحشود، وفي مباريات كرة القدم، وفي الحروب، تصبح الحدود هلامية، وتصبح الأشياء الحقيقية وهماً. يزحف الضباب إلى العقل. التوتر، والحماسة، والتعب، والحركة، كلها تمتزج في حلم رمادي عظيم. وعندما ينتهي الحلم يصعب عليك تذكر الرجال الذين قتلتهم، أو أمرت بقتلهم. ثم يأتيك أشخاص لم يكونوا هناك ليخبروك بما كان عليه الأمر، فتجيب عن ذكريات تلاشت في الوعي وبغير يقين:

– أعتقد أن الأمر كان كما تقولون.

احتلَّ الطاقم ثلاث غرف في الطابق العلوي من قصر العمدة **أوردن**، وضعوا أسرَّتهم الميدانية وبطانياتهم ومعداتهم في غرف النوم، وجعلوا من الغرفة المجاورة التي تطل على غرفة الرسم الصغيرة في الطابق الأرضي، نادياً لهم. أو يمكن تسميتها كذلك، فيها كراسيّ قليلة وطاولة.كتبوا الرسائل وقرؤوها في النادي، وتبادلوا الأحاديث وطلبوا القهوة وخططوا، وفيه استراحوا. على جدرانه عُلقت صور لأبقار وبحيرات ومزارع صغيرة، ومن نوافذه كانوا يستطيعون مشاهدة المدينة والواجهة البحرية، والأرصفة التي تربط عليها السفن. وترسو فيها زوارق الفحم، لتعبئ حمولتها، وتغادر الرصيف. من نوافذ النادي كانوا يستطيعون أيضاً مشاهدة المدينة الصغيرة، وطرقها الملتوية التي تتجاوز الميدان، وتصل إلى الواجهة البحرية. وبإمكانهم رؤية قوارب الصيد الصغيرة ترسو في الخليج بأشرعتها الملفوفة. ومن النافذة أيضا كانوا يشمون رائحة الأسماك المجففة على الشاطئ.

يجلس الرائد **هنتر** إلى طاولة كبيرة في وسط الغرفة، لوحة الرسم في حجره، يسندها على الطاولة، أدواته بجواره. مسطرة على شكل الحرف (T)، ومثلث، يعمل على تصميم خط جديد للسكة الحديدية، تملَّكه الغضب لعدم استقرار اللوحة؛ فزعق:

– براكل. أيها الملازم **براكل**.

خرج الملازم من غرفة النوم وهو يمسك فرشاة في يده، ووجهه مغطى بمعجون الحلاقة، وقال:

– نعم.

هزّ الرائد **هنتر** اللوحة، وسأل:

– ألم تجدوا الحامل الثلاثي القوائم للوحاتي في الأمتعة؟

– لا أعرف يا سيدي؛ فلم أبحث عنه.

– حسناً، افعل ذلك الآن. يكفيني من السوء أني أعمل في هذا الضوء، عليَّ أن أعيد الرسم مرة أخرى قبل أن أخطها

بالحبر.

– عندما أنهي حلاقتي، سأبحث عنه على الفور.

– هذا المسار في السكة الحديدية أكثر أهمية من مظهرك. ابحث عن حقيبة قماشية مثل حقيبة الغولف تحت الكومة هناك.

اختفى الملازم **براكل** في غرفة النوم. فتح الباب الأيمن، ودخل النقيب **لوفت** يرتدي خوذة ونظارة ميدانية، ويتمنطق بسلاحه، وحقائب جلدية صغيرة على ظهره، وقال:

– تعرف بنتيك المجنون، خرج في مهمة وهو يرتدي الزي العسكري كاملاً ويمشي في الشارع على مرأى الجميع.

طفق النقيب **لوفت** يخلع معداته. ووضع نظارته الميدانية على الطاولة، وخلع خوذته، ثم أنزل الحقيبة التي تحتوي على القناع الخاص بالغاز. وبدأت كومة المعدات تتراكم على الطاولة، تضايق الرائد **هنتر**:

– لا تترك هذه الأشياء هنا، لديَّ عمل عليَّ إنجازه. ولماذا يصر بنتيك على ارتداء القبعة؟ لم تحدث أية مشكلة هنا، لقد مللت هذه المعدات المصنوعة من الصفيح، ثقيلة وتحجب الرؤية أيضاً.

رد النقيب **لوفت** بتغطرس:

– إن إهمالنا اليقظة والحس العسكري أمر خطير، وقد يؤلّب الناس علينا، ويجلب لنا المتاعب.

– وما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟

انتصب النقيب **لوفت**، وزمّ شفتيه موقناً بأنه سيتعرض لضرب مبرح يوماً ما بسبب ثقته المفرطة، وقال:

– لستُ أنا مَن يعتقد ذلك، بل هذا ما ورد في دليل X–12 حول التصرف في البلدان المحتلة. إنه دليل أعد بعناية، عليك..

سكت قليلاً، وغيّر الجملة التي ودَّ قولها.

– على الجميع قراءة دليل X–12 باهتمام كبير.

– أتساءل إن كان الرجل الذي أعد الدليل قد زار بلداً محتلاً. الناس هنا طيبون ومطيعون، وغير مؤذيين.

عاد الملازم **براكل** ومعجون الحلاقة ما زال على وجهه، وخلفه الملازم **توندر**، رفع الملازم **براكل** أنبوباً قماشياً بني اللون، وسأل:

– أهذا هو.

– نعم، افتحه من فضلك، وانصب الحامل.

ركب الملازمان **براكل** و**توندر** الحامل الثلاثي، ثم قرباه من الرائد **هنتر**، الذي ثبَّت لوحته عليه. حركها يميناً ويساراً وفحص ثباتها، ثم استقر خلفه بعد أن صدرت تنهيدة تعب من جوفه.

قال النقيب **لوفت**:

– هناك معجون على وجهك.

رد الملازم **براكل**:

– كنت أحلق لحيتي عندما ناداني الرائد **هنتر** لأبحث له عن الحامل الثلاثي الأرجل.

وقال النقيب **لوفت**: من الأفضل أن تزيله. فقد يراك العقيد **لانسر**.

– لن يقول شيئاً، فهو لا يهتم بهذه الأمور.

اختلس الملازم **توندر** النظر على اللوحة التي يعمل عليها الرائد **هنتر**. قال النقيب **لوفت**:

– قد لا يهتم العقيد بذلك، ولكنه أمر غير لائق.

أخذ الملازم **براكل** منديلاً ومسح المعجون عن خده. وأشار الملازم **توندر** إلى رسم صغير في زاوية اللوحة، وقال:

– جسر جميل سيدي الرائد، ولكن في أي مكان سيتم بناؤه؟

التفت الرائد هنتر إليه، وقال:

– أوه، هذا ليس جسراً سنقوم ببنائه، إنه مخطط فقط.

– ولماذا ترسم جسراً؟

بدا الإحراج على وجه الرائد هنتر:

– لدي نموذج مصغر لخط سكة حديدية في الحديقة الخلفية لمنزلي كما تعلم، كنت أنوي بناء جسر فوق مجرى مائي. مددت السكة الحديدية حتى الخور، ولكني لم أبنِ الجسر، أردت استغلال وقتي هنا لرسم مخطط للجسر.

أخرج الملازم براكل صورة مطوية من جيبه، وفتحها. كانت صورة لفتاة شقراء تغطي نصف وجهها بمروحة سوداء من الدانتيل، حدق في عينيها ورموشها وجسمها المتناسق. وفستانها ذي فتحة الصدر الواسعة، ورجليها اللتين غطتهما بجوربين أسودين مخرمين، وقال:

– إنها رائعة، أترى ذلك؟

اختلس الملازم توندر نظرة إلى الصورة، وقال:

– لا أحبها.

– وما الشيء الذي لا تحبه فيها؟

– لا أحبها وكفى، ولماذا تحمل صورتها؟

– لأنني أحبها، وأراهن أنك تحبها أيضاً.

– لا أحبها.

– ألن تواعدها إن تمكنت من ذلك؟

– لن أفعل.

– أنت مجنون.

ثم نهض الملازم براكل، ووقف عند إحدى الستائر، وثبت صورتها، وقال:

– سألصق صورتها هنا، وأجعلك تفكر فيها كلما نظرت إليها.

كان النقيب لوفت يجمع معداته، وقال:

– يجب أن تزيل الصورة، لأنها ستترك انطباعاً سيئاً عند سكان المدينة.

رفع الرائد هنتر نظره عن لوحته متسائلاً عن الأمر، فرأى الصورة:

– ومن هذه؟

رد الملازم براكل:

– إنها ممثلة.

– هل تعرفها؟

تدخل الملازم توندر:

– إنها مومس.

التفت الرائد هنتر نحو الملازم براكل:

– إن كان الأمر كذلك، فإنك تعرفها.

لم يبعد الملازم **براكل** نظراته عن الملازم **توندر**:

– ولماذا تقول إنها مومس؟

– إنها تبدو كذلك.

– هل تعرفها؟

– لا، ولا أريد معرفتها.

– إذنْ أرجوك ألا تتحدث عن أمر لا تعرفه.

تدخل النقيب **لوفت**:

– عليك إزالة الصورة، ألصقها في سريرك إن كنت تريد تعليقها، هذه الغرفة للعمل فقط.

وشت نظرة الملازم **براكل** بأنه على وشك الرفض، وعندما فتح شفتيه ليرد صرخ النقيب **لوفت**:

– هذا أمر عسكري أيها الملازم.

زمَّ الملازم **براكل** شفتيه مستاءً، وطوى الصورة، وأعادها إلى جيبه. أراد أن يزيل التوتر ويعيد إشاعة جو المرح في الغرفة، وقال:

– لا بأس. هناك فتيات جميلات في المدينة، ألم تلاحظوا ذلك؟ عندما تستقر الأمور في المدينة سأتعرف إلى بعضهن فوراً.

قال النقيب **لوفت**:

– عليك أن تقرأ دليل X–12، فهناك قسم يتناول الأمور الجنسية.

ثم خرج حاملاً حقيبته ومعداته ونظارته.

قال الملازم **توندر** وهو يراقب لوحة الرائد **هنتر**:

– هذا ذكاء منك، إن ما تخطط له يجعل عربات الفحم تخرج من مناجم الفحم إلى السفن مباشرة.

كان الرائد هنتر مركزاً على عمله، فتمتم:

– يلزمنا الإسراع في تنفيذ عملية نقل الفحم. إنها مهمة ليست بيسيرة، ولكن ما يساعدنا هو أن أهل المدينة خانعون، وهادئون، وعقلانيون.

في تلك الأثناء كان النقيب **لوفت** قد عاد إلى الغرفة متخففاً من معداته، ووقف بجوار النافذة ينظر إلى الميناء:

– إنهم هادئون وعقلانيون لأننا كذلك، وهذا يدعونا إلى أن نفخر بأنفسنا. ولذلك أتحدث دائماً عن الإجراءات، لقد تم التخطيط لها بعناية كبيرة.

دخل العقيد **لانسر** الغرفة، وخلع معطفه، فأدى أفراده التحية العسكرية بما يكفي احتراماً له، وقال محادثاً النقيب **لوفت**:

– أيمكنك أن تحل محل النقيب **بنتيك** في الأسفل؟ إنه ليس في صحة جيدة، ويشعر بالدوار.

– حاضر سيدي، ولكنني أريد أن أضيف شيئاً، وأعلمك أني للتو انتهيت من مناوبتي.

ركز العقيد **لانسر** نظراته عليه:

– آمل ألا تمانع بالذهاب أيها النقيب.

– لا أمانع سيدي، ولكنني كنت أعلمك فحسب سيدي ليتم توثيق ذلك.

استرخى العقيد **لانسر** وضحك:

– تود أن يتم تسجيل ذلك في التقارير، أليس كذلك؟

– لن يضر توثيق عملي بشيء.

– وعندما توثق عدداً كبيراً من الأعمال ستحصل على قلادة صغيرة تعلق على صدرك.

– إنها إنجازات ومعالم بارزة تضيف الكثير إلى مسيرتي العسكرية سيدي.
– ربما تضيف لك، لكنها لن تكون شيئاً لتتذكره أيها النقيب.
– لم أفهم يا سيدي.
– قد تعرف ما أعنيه لاحقاً.
ارتدى النقيب **لوفت** معداته بسرعة، وقال:
– نعم سيدي.
خرج وبَدا لخطواته على السلالم الخشبية دوي يُسمع، فلم يبعد العقيد **لانسر** عينيه عنه، وبان السرور على محياه، وقال:
– إنه جندي بالفطرة.
رفع الرائد **هنتر** عينيه عن اللوحة وقال:
– حمار بالفطرة.
رد العقيد **لانسر**:
– لا. إنه يتصرف كجندي مثلما يتصرف السياسيون، قريباً سينضم إلى هيئة الأركان العامة، وسينظر إلى الحرب من مكان مرتفع، وبشكل أعم. ولذلك سيحبها دائماً.
سأله الملازم **براكل**:
– وحسب اعتقادك سيدي، متى ستنتهي الحرب؟
– ستنتهي! ستنتهي! ماذا تعني بذلك؟
– أعني متى سننتصر؟
هز العقيد **لانسر** رأسه:
– أوه، لا أعلم، ما زال الأعداء موجودين حول العالم.
قال الملازم **براكل**:
– سنحطمهم.
سأل العقيد **لانسر**:
– هل باستطاعتنا تحطيمهم؟
– ألن نحطمهم؟
– نعم. نعم، نحن نفعل ذلك دائماً.
– وهل سيتم منحنا إجازات إذا هدأت الأوضاع قبل عيد الميلاد؟
– لا أعرف، أوامر كهذه نتلقاها من الوطن، هل تريد أن تكون في منزلك في عيد الميلاد؟
– أود ذلك.
كرر العقيد **لانسر**:
– ربما تعود، ربما تعود.
سأله الملازم **توندر**:
– وهل سننسحب سيدي من الدول المحتلة بعد انتهاء الحرب؟
– لا أعلم، ما الداعي إلى هذا السؤال؟

– لأنه بلد جميل وأناسه طيبون، ومن المحتمل أن يستقر بعض رجالنا فيه.

قال العقيد **لانسر**:

– يبدو أن مكاناً ما أعجبك هنا.

رد **الملازم** توندر:

هنالك مزارع جميلة هنا، إذا جمعنا أربعاً أو خمساً منها معاً، فستكون مكاناً لطيفاً للاستقرار.

سأله العقيد **لانسر** إن كان يملك أرضاً عائلية.

– لا يا سيدي، لقد خسرناها، سلبها التضخم منا.

شعر العقيد **لانسر** بالسأم وكأنه كان يحادث أطفالاً.

– حسناً، ما زالت أمامنا حرب نخوضها، وفحم نستخرجه. هل تعتقد أن بإمكاننا الانتظار حتى انتهاء الحرب لنبني هذه العقارات والممتلكات؟ هذه الأوامر تصل إلينا من قياداتنا، بإمكان النقيب **لوفت** أن يخبرك عن ذلك. أيها الرائد **هنتر**، الفولاذ الذي طلبته سيصل إليك غداً، يمكنك البدء في بناء مسارات السكك الحديدية هذا الأسبوع.

طُرق الباب وأدخل الحارس رأسه، وقال:

– السيد **كوريل** يرغب في رؤيتك سيدي.

– دعه يدخل.

ومن ثم التفت العقيد **لانسر** للآخرين، وقال لهم:

– هذا الذي ساعدنا ومهَّد لنا الغزو. قد نُجابِه بعض المشكلات معه.

سأل الملازم **توندر**:

– هل قام بعمل جيد؟

– نعم، ولكن الناس لن يحبوه في المدينة، وأتساءل إن كان سيحظى بالقبول بيننا.

قال الملازم **توندر**:

– إنه شخص يستحق الثناء والتقدير بالتأكيد.

– نعم، وأعتقد أنه سيطالب بذلك.

دخل السيد **كوريل** يفرك كفيه مرتدياً بذلة العمل السوداء، ويبدو عليه الود والراحة برغم الضمادة المثبتة على رأسه بشريط لاصق. وصل إلى منتصف الغرفة، وقال:

– صباح الخير أيها العقيد، كان عليَّ أن أتصل بك البارحة. بعد المشكلات التي حدثت في الطابق السفلي، ولكني قدَّرت انشغالك.

رد العقيد لانسر وقد حرك يديه بشكل دائري:

– صباح الخير سيد كوريل، هؤلاء هم أفراد طاقمي.

– أولاد جيدون، وقاموا بعمل رائع، حسناً، لقد بذلت جهدي في تجهيز كل شيء لهم.

انشغل الرائد **هنتر** بلوحته، وغمس قلمه في الحبر، وبدأ يرسم. قال العقيد **لانسر**:

– لقد أحسنت صنعاً، ولكني تمنيت لو أنك لم تقتل الرجال الستة، وددت أن يعود جنودهم إلى المدينة".

بسط السيد **كوريل** يديه، وقال مرتاحاً:

– إن خسارة ستة رجال في مدينة بهذا الحجم وتحوي منجماً للفحم، تعد أمراً لا يذكر وغير ذي أهمية.

– لا أهتم بقتل الناس إن كان ذلك سينهي الأمر. من الأفضل عدم القيام بذلك.

التفت السيد **كوريل** إلى الضباط الواقفين وبدأ يتفرس فيهم كأنه يدرسهم، توقفت نظراته على الملازمين، وقال:

– أظن أنه من الأفضل أن نتحدث وحدنا سيادة العقيد.

– الملازم **براكل** والملازم **توندر**، هلّا تفضلتما بالذهاب إلى غرفتكما.

ثم نظر إلى السيد **كوريل**:

– الرائد **هنتر** مشغول بالعمل، ولا يسمع شيئاً خلال تركيزه على عمله.

رفع الرائد **هنتر** رأسه عن اللوحة وابتسم وعاد إلى عمله. وعندما خرج الملازمان من الغرفة، قال العقيد **لانسر**:

– حسناً، ها نحن هنا، ألن تجلس؟

جلس السيد **كوريل** مواجهاً الطاولة وشكر العقيد **لانسر**. نظر الرائد **هنتر** إلى الضمادة على رأس السيد **كوريل**، وسأله:

– هل حاولوا قتلك؟

لمس السيد **كوريل** الضمادة بأطراف أصابعه:

– أتقصد هذه؟ أوه، لقد سقط حجر على رأسي صباحاً من جرف في التلال.

– هل أنت متأكد أنه لم يتم رميه عليك؟

– ما الذي تعنيه؟ إن أهل المدينة ليسوا عنيفين، ولم يخوضوا حرباً منذ مئة سنة، لقد نسوا شيئاً اسمه قتال.

قال العقيد **لانسر**:

أنت من عشت بينهم، ويجدر بك أن تعرف ذلك.

ثم اقترب من السيد **كوريل**، وأردف:

– إذا كنت آمناً، فستقول ذلك. أشعر بأن أهل هذه المدينة مختلفون، أدرك ذلك لأني شاركت وساعدت في احتلال دول سابقاً، كنت في بلجيكا وفرنسا قبل عشرين سنة. لقد قمتَ بعمل جيد، يجب أن نشكرك عليه، ولقد سجلت ذلك في تقريري.

– شكراً سيدي، لقد فعلت أفضل ما يمكن فعله.

تنهد العقيد **لانسر** متعباً:

– حسناً سيد **كوريل**، ما الذي بإمكاننا أن نفعله لك حالياً؟ هل تود المغادرة إلى العاصمة؟ إن كنت مستعجلاً، فبإمكاننا أن ننقلك على ظهر سفينة تنقل الفحم. أو على متن مدمرة إن كنت تريد الانتظار.

– ولكني لا أريد المغادرة، أرغب في البقاء هنا.

قلب العقيد **لانسر** الأمر في ذهنه، ثم ردّ:

تعلم أنه ليس لدي عدد كبير من الرجال، وليس بإمكاني أن أعين حرساً لحمايتك.

– لا أحتاج إلى حارس. وكما قلت لك، فإن هؤلاء الناس ليسوا عنيفين.

وجه العقيد **لانسر** بصره إلى الضمادة، ورفع الرائد **هنتر** عينيه عن اللوحة، وقال:

– أعتقد أن من الأفضل لك أن تبدأ بارتداء خوذة في تنقلاتك.

ثم عاد إلى لوحته. قدم السيد **كوريل** كرسيه واقترب من العقيد **لانسر**:

أريد أن أحدثك في أمر خاص أيها العقيد. أعتقد أن بإمكاني أن أقدم المساعدة في الإدارة المدنية.

استدار العقيد، ومشى إلى النافذة يحدق في الخارج:

– ماذا يدور في ذهنك؟
– يجب أن تكون عندك سلطة مدنية تثق بها، وأظن أن العمدة **أوردن** قد يتنحى من منصبه الآن وبصراحة إن توليت المنصب، فسيتم التعاون بين مكتب العمدة والجيش بشكل رائع.
اتسعت عينا **لانسر** ولمعتا، واقترب من السيد **كوريل**، وقال بنبرة جادة:
– هل ذكرت هذا في تقاريرك؟
– بالطبع، في التحليل الذي قدمته.
قاطعه العقيد **لانسر**:
– هل تحدثت مع أي أحد من سكان البلدة مذ وصلنا غير العمدة؟
– حسناً؛ إنهم لا يزالون تحت وقع الصدمة (كما ترى) لم يتوقعوا ما حدث.
ضحك بأعلى صوته.
من المؤكد أنهم لم يستوعبوا ما حدث.
عاد العقيد **لانسر** إلى النقطة التي في ذهنه.
– إذنْ فأنت لا تعرف حقاً ما يدور في عقول الناس.
– إنهم مصدومون، وكأنهم في حلم.
– ولا تعرف ما الذي يقولونه عنك، أو بماذا يفكرون بشأنك؟
– لدي أصدقاء كثر هنا، وأعرف أهل المدينة كلهم.
– هل اشترى أحد ما من متجرك شيئاً هذا الصباح؟
– لا، فالأعمال التجارية متوقفة. لا أحد يشتري شيئاً.
شعر العقيد **لانسر** بالراحة، وجلس على كرسي، ووضع ساقاً على ساق، وقال:
– خدماتك شجاعة وصعبة، ويجب أن تكافأ عليها بشكل كبير.
– شكراً سيدي.
– ستلمس أثر كراهيتهم بمرور الوقت.
– أستطيع التعامل مع كراهيتهم، وأتوقع ذلك، لأنهم أعداء.
تردد العقيد **لانسر** قبل أن يقول بهدوء:
– لن تحظى باحترامنا حتى.
وبحماسة قفز السيد **كوريل** على رجليه:
– هذا يعارض ما قاله القائد. فقد ذكر أن جميع الفروع العاملة في الاحتلال متساوية في الشرف.
تحدث العقيد **لانسر** بهدوء:
– أود لو أن القائد يعرف ذلك، ويستطيع قراءة عقول الجنود. يجب أن تُكافأ مكافأة جيدة.
ظل ساكناً دقيقة، واستجمع نفسه، ثم قال:
– يجب أن نكون واضحين، أنا المسؤول هنا، وعملي استخراج الفحم، ولأفعل ذلك عليَّ فرض النظام والانضباط. ولأحقق ذلك يجب أن أعرف ما يدور في عقول الناس، يجب أن أستعد للثورة إن قامت. أتفهَمُ ما أقوله؟
– بوسعي سيدي اكتشاف ما تريد معرفته بصفتي عمدة، وسأكون فعالاً جداً.

هزَّ العقيد **لانسر** رأسه، وقال:

– ليست لديّ أوامر بهذا الشأن، لن يتحدث إليك أحد من الناس، ولن يقترب منك إلا مَن يسعون وراء المال، وستكون عرضة للخطر من دون حارس شخصي. سأكون ممتناً لو غادرت إلى العاصمة، وهناك مكافأة كبيرة بانتظارك.

– ولكن هذا مكاني، وقد قمت بتحديده، وذكرت كل ذلك في تقريري.

تابع العقيد **لانسر** حديثه وكأنه لم يسمع شيئاً:

العمدة **أوردن** ليس عمدة فحسب، إنه يحب شعبه، ويعرف ما يفعلونه وما يستهويهم، وبمراقبته سيكون لديّ مؤشر بشأن رد فعل الناس وما يفكرون فيه. وبحسب رأيي، فإنه يجب أن يبقى.

– سيدي، إن عملي يجب أن يحظى بمعاملة أفضل من أن يتم إبعادي عن المشهد، وإرسالي بعيداً.

قال العقيد **لانسر** مشدداً على كل حرف ببطء:

كلامك صحيح، ولكنك العقبة الوحيدة، وتشكل عبئاً على المهمة الكبرى، وعبئاً على الرؤية والعمل الأكبر. وإن لم تكن مكروهاً حتى الآن، فستكون كذلك قريباً. وفي أية ثورة صغيرة تحدث ستكون أول من يقتل. سأقترح على القيادة إبعادك عن المكان.

تمسك السيد **كوريل** برأيه:

– أدرك أنك ستفعل ذلك، ولكن هل تسمح بتأخير اقتراحك حتى أتلقى رداً على تقريري من العاصمة؟

– لا أمانع، ولكن أوصيك بالمغادرة حرصاً على سلامتك. بكل صراحة يا سيد **كوريل**، لم تعد لديك أية قيمة هنا، وهناك خطط مختلفة ودول أخرى، ربما ستذهب إلى مدينة جديدة في بلد جديد، وتكسب الثقة في مجال آخر، وتمنح بلدة أكبر أو مدينة أو مسؤولية أعظم، وسأقدم توصية توضح أعمالك، وما قدمته.

لمعت عينا السيد **كوريل** امتناناً ورضا، وقال:

– شكراً سيدي، لقد عملت بجهد. ربما يكون ما قلته صحيحاً، ولكن اسمح لي بالبقاء حتى يصل إليَّ رد من العاصمة.

حدثه العقيد **لانسر** بنبرة صارمة، وضيّق عينيه:

– يجب أن ترتدي خوذة تحميك. ابقَ في المنزل ما أمكنك، ولا تخرج ليلاً. وإضافة إلى هذا لا تشرب نبيذاً، ولا تثق بأية امرأة أو رجل، هل تفهم؟

نظر السيد **كوريل** إلى العقيد **لانسر** بشفقة:

– أعتقد أنك لا تستوعب الأمر، لدي منزل صغير هنا، وفتاة ريفية لطيفة تنتظرني، وأظن أنها تشعر بشيء تجاهي، وبدأت تحبني؛ إنهم أناس بسطاء ومسالمون، أعرفهم جيداً.

قال العقيد **لانسر**:

ما من أناس مسالمين، متى ستتعلم ذلك؟ وليس هناك أناس ودودون، ألا تفهم؟ لقد قمنا باحتلال هذا البلد، وأنت في نظرهم خائن، وساعدتنا على ذلك.

واحمرَّ وجه العقيد **لانسر** وارتفع صوته:

– ألا تفهم أننا في حرب مع هؤلاء الناس؟

رد السيد **كوريل** بفخر:

– لقد هزمناهم.

نهض العقيد **لانسر** وهو يحرك ذراعيه في الهواء. أمسك الرائد **هنتر** لوحته حتى لا تسقط، وقال:

– عليك أن تكون حذراً يا سيدي، أقوم بملء الأجزاء، وتحبير التخطيط، أخشى أن أضطر إلى إعادة كل شيء من

جديد، ولا أود ذلك.

اعتذر العقيد **لانسر** من الرائد هنتر، ووقف وكأنه يخطب:

– الهزيمة لحظية. الهزيمة لا تعني النهاية ولا تدوم، لقد هزمنا قبل ذلك، والآن أصبحنا نهاجم. الهزيمة لا تعني شيئاً، ألا تفهم؟ وأود أن أسألك، هل تعرف ما الذي يهمسون به خلف الأبواب؟

سأله السيد كوريل:

– هل تريد أن تعرف ما الذي يقولونه عن الاحتلال؟

– لا، ولكني أشك في الأمر.

– هل أنت خائف أيها العقيد؟ وهل يجدر بقائد الاحتلال أن يخاف؟

ألقى العقيد **لانسر** بثقل جسده على الكرسي، وقال:

– هذا ما كنت أتحدث عنه. سئمت من الناس الذين لم يشاركوا في الحروب، ويتحدثون كأنهم يعرفون كل شيء عنها، وتعبت منهم.

أسند ذقنه على يده، وأكمل:

– أتذكر عجوزاً في بروكسل، وجهها لطيف، وشعرها أبيض تغطيه بشال. قصيرة جداً، بإمكانك أن ترى الأوردة والعروق على يديها الرقيقتين، اعتدنا أن نسمع أغانينا الوطنية منها بصوتها المرتجف العذب. كانت تساعدنا وتعرف أين نجد ما نحتاج إليه، سواء كان الأمر متعلقاً بسيجارة أو فتاة.

أبعد يده عن ذقنه، وانتفض كأنه صحا من كابوس.

– لم نكن نعلم بأن ابنها أُعدِم، وقمنا بإعدامها لاحقاً رمياً بالرصاص، بعد أن اكتشفنا أنها قتلت اثني عشر رجلاً بدبابيس شعر طويلة سوداء يزينها طائر أحمر وأزرق مصنوع من المينا. ما زلت أحتفظ بتلك الدبابيس في منزلي لكي أظل أتذكر الأمر.

قال السيد **كوريل**:

– ولكنكم أطلقتم عليها النار.

– نعم فعلنا ذلك.

– ومن بعد قتلها توقفت جرائم القتل.

– لا، لم تتوقف عمليات القتل. وعندما انسحبنا قطع الناس رؤوس المتخلفين، وأحرقوا بعضهم، وقلعوا عيون آخرين، وصلبوا جزءاً منهم.

– هذه أمور يجب ألا تُقال سيدي العقيد. إنها ليست جيدة.

– لا تصلح أن تكون في موضع قيادة إن كنت تخاف. أعرف كيف أقاتل، وعندما يعرف الرجل ذلك لن يرتكب أخطاء سخيفة.

– هل تتحدث بهذه الطريقة مع ضباطك الشباب؟

هز العقيد **لانسر** رأسه:

– لا، فلن يصدقوني إن حدثتهم كذلك.

– ولماذا تخبرني بذلك؟

– لأن عملك انتهى سيد **كوريل**، أتذكر مرة.

قطع حديثه صوت خطوات على الدرج، فتح الباب بقوة، وأطل أحد الحراس، وهرع النقيب **لوفت** إلى الداخل. كان

جامداً، وتحدث بنبرة عسكرية:

– هناك مشكلة سيدي.

– مشكلة؟

– وجب إبلاغك سيدي بأن النقيب **بنتيك** قُتِل.

– أوه... **بنتيك**.

تعالت أصوات من الخارج، ودخل رجلان يحملان نقالة مغطاة ببطانية، سأل العقيد **لانسر**:

– هل تم تأكيد موته؟

قال النقيب **لوفت**:

– نعم سيدي.

دخل الملازمان مشدوهين، يبدو الخوف عليهما، أشار العقيد **لانسر** إلى الجدار الذي فيه النوافذ، وطلب من حاملي النقالة أن يضعاها هناك. ففعلا ذلك ثم غادرا، واقترب العقيد من النقالة، ووقف على ركبتيه، ورفع زاوية البطانية وأعادها بسرعة، ثم نظر إلى النقيب **لوفت**:

– من فعل هذا؟

– عامل في المنجم.

– لماذا؟

– كنت هناك سيدي.

– إذنْ قدم تقريراً عن الحادثة. تحدث، اللعنة، اللعنة يا رجل.

شد النقيب **لوفت** جسده، وتحدث برسمية:

– لقد قمت بتنفيذ أمرك سيدي العقيد بأن أغطي مكان النقيب **بنتيك**، وكان على وشك المغادرة، وفي تلك الأثناء واجهت مشكلة. فقد تمرد أحد عمال المنجم، مُبدياً رغبته في ترك العمل، وبدأ يصيح بكونه رجلاً حراً. أمَرْتُه أن يعود إلى عمله، فهجم عليّ بفأس، وعندئذٍ اندفع النقيب **بنتيك** لحمايتي. وأشار النقيب **لوفت** إلى الجثة.

هز العقيد **لانسر** رأسه ببطء، وقال من دون أن ينهض من على ركبتيه:

– كان النقيب **بنتيك** فضولياً، يحب الإنجليز وكل شيء متعلق بهم، ولا أعتقد أنه كان يحب القتال. هل أسرتم العامل؟

أجاب النقيب **لوفت**:

– نعم سيدي.

نهض العقيد **لانسر** متثاقلاً، وتحدث بصوت خفيض كأنه يحدث نفسه:

– لقد بدأ الأمر مجدداً، سنطلق النار على هذا الرجل، ونصنع عشرين عدواً جديداً، هذا الأمر الوحيد الذي نعرفه، الأمر. الوحيد. الذي. نعرفه.

قال الملازم **براكل**:

– ماذا تقول سيدي؟

أجاب العقيد **لانسر**:

– لا شيء، لا شيء إطلاقاً. كنت أفكر فقط.

التفت إلى النقيب **لوفت**:

– أبلغ تحياتي للعمدة أوردن، وأخبره أنني أريد لقاءه على الفور، هذا مهم جداً.
رفع الرائد هنتر رأسه، وجفف قلمه، ثم وضعه في صندوق مبطن بالمخمل.

الفصل الثالث

يسير الناس في شوارع المدينة متجهمين. اختفى نور الدهشة من عيونهم، ولم يحلَّ محله بعد بريق الغضب. العمال في المنجم يدفعون عربات الفحم بوجوه مكفهرّة. ويقف التجار الصغار خلف طاولاتهم لخدمة الناس، ولم يقترب منهم أحد. يتحدث الناس مع بعضهم بعضاً بكلمات مبتورة، يفكرون في الحرب، كما يفكر كل واحد منهم في نفسه. يفكرون في الماضي، وكيف تغير فجأة.

المصابيح مضاءة، ونار صغيرة مشتعلة في غرفة الرسم بقصر العمدة **أوردن**. الجو في الخارج رمادي، والصقيع يغطي الأرجاء، والغرفة تخضع للتغيير، والكراسي المغطاة بالنسيج المهترئ تُدفع إلى الخلف. الطاولات الصغيرة تُبعد عن الطريق، وعلى المدخل الأيمن يكافح **جوزيف** و**آني** لإدخال طاولة طعام كبيرة مربعة. رفعاها على جانبها، ودخل **جوزيف** غرفة الرسم، ووجه **آني** الأحمر يظهر من خلال الباب. حرَّك **جوزيف** رجلي الطاولة، وصاح:

– لا تدفعي. **آني**، الآن.

قالت **آني** ذات الأنف الأحمر والعينين الحمراوين من الغضب:

– إني أفعل ذلك، إنني أدفعها.

آني غاضبة على الدوام، وزاد هؤلاء الجنود والاحتلال من سوء مزاجها. ما كان يُعد في السنوات الماضية سلوكاً سيئاً، تحول فجأة إلى عاطفة وطنية، واكتسبت **آني** سمعة جيدة. وأصبحت رمزاً من دعاة الحرية، وذلك بعد سكبها الماء الساخن على الجنود. رغم أنها كانت ستسكبه على أي شخص يقف في شرفتها، لكنها أصبحت بطلة. الغضب كان بداية نجاحها، وواصلت تحقيق نجاحات جديدة، بجلد نفسها لتصل إلى حالة الغضب رغبة منها في أن يتزايد ويستمر. قال **جوزيف**:

– لا تخدشي القاع.

وعلقت الطاولة في المدخل. نبَّهها **جوزيف**:

– اثبتي.

– أنا ثابتة.

ابتعد **جوزيف** يعاين الطاولة والمدخل، ويدرس الأمر، فكتَّفت **آني** ذراعيها ونظرت إليه غاضبة. جرَّب **جوزيف** دفع إحدى أرجل الطاولة، وقال:

– لا تدفعي.

تمكن من إدخال الطاولة وحده، و**آني** تتبعه بذراعيها المكتوفين.

– ارفعيها الآن.

ساعدته **آني** على تثبيت الأرجل الأربع، ووضع الطاولة في وسط الغرفة، وقالت آني:

– لو لم يطلب مني صاحب السعادة نقل الطاولة لما فعلت، بأي حق يحركون الطاولات؟

– وبأي حق حضروا إلى هنا، وأخذوا كل شيء.

– لا حق لهم في شيء.

– لا يملكون أي حق إطلاقاً، يفعلون ذلك ببنادقهم ومظلاتهم يا **آني**.

– لا يملكون حقاً، ولماذا يريدون الطاولة هنا؟ إنها ليست غرفة طعام.

حرك **جوزيف** كرسياً نحو الطاولة، واهتم بالبعد الصحيح بين الطاولة والكرسي، وبدأ يعدله، ثم قال:

– سيعقدون محاكمة هنا، ويحاكمون **ألكسندر مورين**.

– أهو زوج **مولي مورين**؟

– نعم، زوجها.

– ألأنه ضرب الجندي بالمعول؟.

– نعم.

– لكنه رجل طيب، أهدى **مولي** فستاناً أحمر في عيد ميلادها. ما الحق الذي يملكونه لمحاكمة **ألكسندر**؟

– لقد قتل العسكري.

– وإن فعل ذلك، ألم يأمره الرجل؟ سمعت ذلك، **واليكس** لا يحب أن يتلقى الأوامر. لقد كان أليكس عضواً في المجلس البلدي في فترة ما، ووالده أيضاً. إن **مولي مورين** تصنع كعكاً لذيذاً. ولكن الكريمة تكون قاسية، ماذا سيفعلون **باليكس**؟

قال **جوزيف** بحزن:

– سيطلقون عليه النار.

– لن يفعلوا ذلك، لا يستطيعون.

– أحضري الكراسي آني. نعم بإمكانهم فعل ذلك بكل بساطة.

حرَّكت **آني** إصبعها في وجه **جوزيف**، وقالت:

– ستتذكر كلماتي. إن أُوذي **أليكس**، فلن يتقبل الناس ذلك. لم يسبق لـ **أليكس** أن آذى أحداً من قبل.

– نعم.

– لن أسمح بإيذاء **أليكس**، والناس كذلك.

– وما الذي ستفعلينه؟

– سأقتل عدداً منهم.

– وبعدها سيطلقون النار عليك.

لا أمانع، دعهم يطلقون النار عليَّ يا **جوزيف**، ستتفاقم الأمور، وسيبدأ جنودهم محاولات التسلل إلى المدينة. يدخلون ويخرجون خلسة في الليل ليطلقوا النار على الناس رغبة منهم في استعادة السيطرة على المدينة.

عدَّل **جوزيف** وضعية مقعد على الطاولة، وأصبح فجأة كشخص متآمر.

– آني. هل يمكنكِ أن تحفظي سراً.

نظرت إليه بشيء من الإعجاب، لأنه لم تكن لديه أسرار في السابق.

– نعم، وما السر؟

– حسناً، إن **ويليام ديل**، و**والتر دوغل** قد تمكنا من الفرار البارحة.

– هربا؟ إلى أين؟

– اتجها إلى إنجلترا على ظهر قارب.

تنهدت آني راضيةً، وسألت:

– هل يعرف الجميع ذلك؟

– ليس الجميع، حسناً الجميع يعرف ذلك ما عدا..

وأشار بإصبعه إلى السقف.

– ومتى غادرا؟ لماذا لم أسمع شيئاً عن ذلك؟

– قد كنتِ مشغولة.

ثم تجمد وجه **جوزيف**، وقال:

– هل تعرفين السيد كوريل؟

– **نعم**.

– لا أظن أنه سيعيش طويلاً.

– ماذا تعني؟

– حسناً، الناس يتحدثون بشأن ذلك.

تنهدت **آني** متوترة.

وأخيراً كان لـ **جوزيف** رأي:

– الناس يتجمعون، لا يحب الناس أن يُقهَروا، ولم يتقبلوا الاحتلال. **آني** هناك أشياء سوف تحدث، أبقي عينيكِ مفتوحتين، وهناك أشياء أيضاً عليك فعلُها.

– وماذا بشأن صاحب السعادة؟ ماذا سيفعل؟ وكيف سيتعامل سعادته مع الأمر؟

– لا أحد يعرف شيئاً؛ لأنه لم يتفوه بشيء.

– أدرك أنه لن يقف في وجهنا.

– لم يقل شيئاً، لا أعرف.

دار **مِقبض** الباب الأيسر، ودخل العمدة **أوردن** يمشي ببطء، وبَدَا متعباً وكبيراً في السن، يتبعه الدكتور **وينتر**، قال العمدة **أوردن**:

– هذا جيد يا **جوزيف**، شكراً، **آني**. يبدو رائعاً.

خرجا، ووقف **جوزيف** لحظة أمام الباب يعاين الممر ثم أغلقه. مشى العمدة **أوردن** إلى حيث النار، واستدار ليدفئ ظهره، وسحب الدكتور **وينتر** كرسياً كان بجوار الطاولة وجلس عليه. قال العمدة **أوردن**:

– أتساءل كم يمكنني أن أظل في هذا المنصب؟ لا يثق الناس بي ولا بالعدو، لا أدري إن كان هذا أمر جيد.

قال الدكتور **وينتر**:

– لا أعرف، ألا تثق بنفسك؟ أهناك شكوك في ذهنك؟

– لا توجد شكوك. أنا العمدة، ولا أفهم الكثير من الأشياء.

ثم أشار إلى الطاولة:

– لا أعرف سبب إصرارهم على عقد المحاكمة هنا؟ سيحاكمون **أليكس مورين** بتهمة القتل، أتتذكره؟ لديه زوجة جميلة لطيفة تدعى **مولي**.

– أتذكر زوجته، كانت معلمة في المدرسة الثانوية، إنها جميلة جداً. وتكره ارتداء النظارة برغم حاجتها إليها. حسناً أعتقد أن **أليكس** قد قتل ضابطاً، ولا يشكك أحد في ذلك.

تحدث العمدة **أوردن** بمرارة:

لم يشكك أحد في هذا الأمر، ولكن لماذا يحاكمونه؟ لماذا لا يطلقون النار عليه، وينتهي الأمر. هذه ليست مسألة شك أو يقين، أو عدالة وظلم، لا شيء من هذا هنا، لماذا يحاكمونه؟ ولماذا في منزلي تحديداً؟

قال الدكتور **وينتر**:

– أظن أنهم سيفعلون ذلك بغرض الاستعراض، هناك فكرة تقول: إذا مررت بهيئة شيء ما، فستحصل عليه. في بعض

الأحيان يرضى الناس عن الهيئة. كان لدينا جنود مسلحون، وجيش، ولكنه ليس جيشاً كما رأيت، وما يأمله الغزاة من المحاكمة هو إقناع الناس بالعدالة، وليس قتل **أليكس**.

قال العمدة **أوردن**:

– أرى ذلك أيضاً.

– وسيتم ذلك، ويعلن عنه في منزلك. منزلك الذي يراه الناس مقرّاً للعدالة.

قطع حديثهما الباب الذي انفتح على اليمين. دخلت شابة جميلة في الثلاثين من عمرها، تمسك بنظارتها في يدها، وترتدي ملابس مرتبة بسيطة، ويظهر عليها التوتر. قالت بتسرُّع واندفاع:

– أخبرتني **آني** بأن أدخل مباشرة إليك سيدي.

– لماذا؟ أعني لا مانع، أأنتِ **مولي مورين**؟

– نعم يا سيدي، سمعت أن زوجي **أليكس** سُيحاكم وتُطلَق عليه النار. أنزل العمدة **أوردن** نظره إلى الأرض، وتابعت **مولي** حديثها:

– يقال إنك مَن سيُصدر الحكم عليه، وكلماتك ستُنهي حياته.

رفع العمدة **أوردن** عينيه:

– ماذا؟ مَن قال ذلك؟

– أهل البلدة سيدي.

استقامت في وقفتها، وقالت متوسلة:

– لن تفعل ذلك، أليس كذلك يا سيدي؟

– وكيف يعرف الناس أمراً يخصني، ولا أعرفه؟

قال الدكتور **وينتر**:

– إن معرفة الناس لغز عظيم، ومعضلة أزعجت الحكام في العالم. ومعرفة الناس تزعج الغزاة الآن، وتنتشر الأخبار برغم التعتيم، وتحطم الحقيقة الأغلال. إنه لغز عظيم.

أظلمت الغرفة فجأة، ورفعت السيدة نظرها، وبَدَا عليها الخوف. قالت:

– إنها سحابة. هناك أخبار بأن الثلوج ستتساقط باكراً وهي في طريقها إلينا.

اتجه الدكتور **وينتر** إلى النافذة، وضيق عينيه وهو ينظر إلى السماء، وقال:

– إنها سحابة كبيرة.

أشعل العمدة **أوردن** مصباحاً، وشكَّل دائرة صغيرة من الضوء، ثم أطفأه، وقال:

– الضوء في النهار يبقى وحيداً.

اقتربت **مولي** من العمدة **أوردن** وقالت:

– أليكس ليس قاتلاً، إنه سريع الغضب والانفعال، لكنه لم يخالف القوانين قطُّ. إنه رجل محترم.

ربت العمدة **أوردن** على كتفيها، وقال:

– أعرف أليكس منذ كان صغيراً. عرفت أباه وجده. هل تعلمين أن جده كان صياداً للدببة فيما مضى.

تجاهلت **مولي** ما قاله العمدة:

– لن تصدر حكماً عليه، أليس كذلك؟

– ليس بإمكاني فعل ذلك.
– الناس يقولون إنك ستفعل، من أجل النظام.
وقف العمدة **أوردن** خلف أحد الكراسي، وأمسك المقعد بيديه، وقال:
– وهل يريد الناس إقرار النظام يا **مولي**؟
– لا أعرف، ما ألمسه وأدركه أنهم يريدون أن يكونوا أحراراً.
– حسناً، هل يعرفون كيف يتعاملون مع الأمر؟ وهل لديهم منهجية لمواجهة عدو مسلح؟
قالت مولي:
– لا، لا أظن.
– أنتِ فتاة ذكية يا **مولي**، أتعرفين ذلك؟
– لا يا سيدي، ولكني أعتقد أنني أحس بالناس. إنهم يشعرون بالهزيمة إذا ظلوا طائعين خانعين. يريدون أن يُظهِروا للمحتلين أنهم لم يُهزَموا بعد.
تدخَّل الدكتور **وينتر**:
– ليست لديهم فرصة للقتال. لن يتمكنوا من مواجهة الرشاشات الميكانيكية.
قال العمدة **أوردن**:
– عندما تعرفين يا **مولي** ما الذي سيفعلونه أخبريني.
نظرت **مولي** إليه مرتابة:
– حسناً.
– تعنين لا، أنتِ لا تثقين بي.
– ولكن ماذا بشأن **أليكس**؟
قال العمدة **أوردن**:
– لن أحكم عليه، لأنه لم يرتكب جريمة بحق أحد من أفراد شعبنا.
ترددت **مولي**:
– ولكن هل سيقتلونه؟
نظر العمدة إليها:
– أوه يا طفلتي العزيزة.
– شكراً سيدي.
اقترب منها العمدة، وخرج صوتها واهناً:
– لا تلمسني، رجاءً لا تفعل ذلك، من فضلك لا تقم بلمسي.
سقطت يد العمدة، وقفت **مولي** لحظة، استدارت وخرجت من الباب، وعندما أغلقت الباب فتحه **جوزيف**، ودخل:
أعتذر يا صاحب السعادة، **العقيد لانسر** يرغب في رؤيتك، أخبرته بأنك مشغول، لأني أعلم أن مولي كانت عندك، والسيدة تريد رؤيتك أيضاً.
– أخبر السيدة بأن تأتي.
خرج **جوزيف**، ودخلت السيدة على الفور، قائلةً:

– لا أستطيع إدارة المنزل، فعدد الناس فيه أكبر من طاقته الاستيعابية. وآني غاضبة طوال الوقت.
– اصمتي.
نظرت إليه السيدة مستغربة:
– لا أعرف ماذا.
صرخ العمدة **أوردن**:
– اخرسي يا **سارة**.
ثم همس لها.
– أريدك أن تذهبي إلى منزل **أليكس مورين**، وتبقي مع **مولي مورين**، فقد تحتاج إليكِ. لا تتحدثي، ابقي معها فحسب.
– لدي مئات الأشياء.
– **سارة**، أريدك أن تبقي مع **مولي مورين**، لا تتركيها وحدها، اذهبي الآن.
– حسناً، سأذهب، متى سينتهي الأمر؟
– لا أعلم، عندما يحين الوقت، سأرسل آني إليكِ.
قبَّلت خده برقة وخرجت. مشى العمدة **أوردن** إلى الباب، ونادى **جوزيف**:
– سأرى العقيد **لانسر** الآن.
دخل العقيد **لانسر** مرتدياً زياً جديداً مكوياً، ويتمنطق بخنجر مزخرف، وقال:
– صباح الخير صاحب السعادة، أريد أن أحادثك بشكل غير رسمي.
ثم نظر إلى الدكتور **وينتر**، وأضاف:
– على انفراد.
اتجه الدكتور **وينتر** نحو الباب، وعندما وصل ناداه العمدة **أوردن**:
– دكتور.
– نعم.
– هلّا عدت مساءً.
– هل هنالك عمل لي.
– لا، ولكني لا أحب الجلوس وحدي.
– سأكون هنا.
– دكتور، هل تعتقد أن **مولي** بخير؟
– نعم، هي في حالة هستيرية تقريباً، ولكنها من عائلة جيدة وقوية، عائلة **كيندرلي** كما تعرف.
قال العمدة **أوردن**:
– أوه لقد نسيت، إنها من عائلة **كيندرلي**، أليس كذلك؟
خرج الدكتور **وينتر** وأغلق الباب، والعقيد **لانسر** في مكانه ينتظر بكل أدب أن يُغلَق الباب. ثم نظر إلى الطاولة والكراسي، وقال:
– لا أستطيع إخبارك عن مدى أسفي بشأن هذا، وأتمنى لو لم يحدث الأمر.
انحنى العمدة **أوردن** بعد ما قاله العقيد **لانسر**، وأكمل العقيد كلامه:

– أنا معجب بك سيدي، وأحترمك كثيراً، ولكن لديَّ مهمة يجب إنهاؤها، وبالتأكيد أنت تدرك ذلك.

نظر العمدة **أوردن** مباشرةً إلى عيني العقيد **لانسر**، وقال:

– نحن لا نتصرف وحدنا، أو وفقاً لتقديرنا الشخصي.

بين الجملتين انتظر العقيد إجابة، ولكنه لم يتلقَّ أية إجابة، فقال:

– هناك قواعد نلتزم بها، وأُقرت في العاصمة، وهذا الرجل قتل ضابطاً.

أجاب العمدة **أوردن** أخيراً:

– لماذا لم تطلق عليه النار؟ لقد كان الوقت مناسباً لفعل ذلك.

هزّ العقيد **لانسر** رأسه، وقال:

– إن وافقتك الرأي، فلن يكون هناك فرق بيننا. وتعلم أن هدف العقوبة ردع الجريمة قبل وقوعها. ونظراً إلى أن العقوبة توجه إلى الآخرين، فإنه لا بد من إعلانها، وتنفيذها بطريقة درامية.

وحرَّك إصبعه على خنجره الصغير، فأبعد العمدة **أوردن** نظره عن العقيد **لانسر**، والتفت إلى النافذة، حيث كانت السماء داكنة، وقال:

– قد تتساقط الثلوج الليلة.

– سيدي العمدة **أوردن**، أوامرنا غير قابلة للمناقشة، أو التغيير، أو التراجع عنها، يجب أن نحصل على الفحم، وعلى رجالك أن يلتزموا بالقوانين والنظام، ولا يسببوا الفوضى. وإلا فإننا سنضطر إلى استعادة النظام بالقوة.

ثم تغيرت نبرة صوته، وحدّثه بصرامة:

– سنطلق النار على الناس إذا لزم الأمر، وإذا رغبت في حماية شعبك، فعليك مساعدتنا في الحفاظ على النظام. ورأت حكومتي أن من الحكمة في ظل هذه الأوضاع أن يصدُر العقاب من قِبَل السلطة المحلية؛ لأن ذلك يسهم في التوصل إلى وضع أكثر تنظيماً.

خفض العمدة **أوردن** صوته:

– إذنْ، فالناس يعرفون، هذه معجزة.

ثم علا صوته:

– هل تريدني أن أصدر أمراً بالإعدام على **ألكسندر مورين** بعد محاكمته في هذا المكان؟

– نعم، وبذلك ستمنع إراقة الكثير من الدماء مستقبلاً.

اتجه العمدة إلى الطاولة، وسحب الكرسي الكبير في منتصفها وجلس، بَدَا كأنه القاضي، والعقيد **لانسر** متهم. ثم ضرب أصابعه على الطاولة، وقال:

– أنت وحكومتك لا تفهمان، وحكومتك وشعبك هم الوحيدون في العالم الذين لديهم سجل من الهزائم المتتالية لقرون، وسبب كل ذلك، عدم فهمكم للناس.

توقف العمدة **أوردن** عن الحديث قليلاً، ثم أردف:

– ومبادئكم بلا فائدة، وتطبيقها صعب جداً. لأنني عمدة، فهذا لا يمنحني حق إصدار أحكام الإعدام، ولا أحد في البلدة يملك هذا الحق، وإذا أصدرت هذا الحكم، فسيكون مخالفاً للقانون. لا يوجَد أحد في هذه البلدة لديه ذلك الحق. إذا فعلت ذلك، فسأكون بذلك أخالف القانون كما تفعلون أنتم.

قال العقيد **لانسر**:

– أنكسر القانون؟

– لقد قتلتم ستة رجال، وبحسب قانوننا، فأنت مذنب، بل جميعكم مذنبون وقَتَلة. لماذا نتورط في هذا الهراء القانوني أيها العقيد؟ ليس هناك وجود للقانون بيننا وبينكم، هذه حرب. ألا تعلم أن عليك قتلنا جميعاً؟ وإلا فإننا سنقتلكم كلكم في الوقت المناسب. لقد ضربتم بالقانون عرض الحائط، وأحللتم قانوناً جديداً.

– هل أستطيع الجلوس؟

– ولماذا تسألني؟ هذه كذبة أخرى، بإمكانك أن تجلس، وتبقيني واقفاً.

قال العقيد **لانسر**:

– لا، سواء صدَّقت ما قلته أم لا، إلا أنني أقدرك وأحترم منصبك و.. (وضع يديه على جبهته) سيدي سأخبرك عن رأيي، فأنا رجل في سن متقدمة، وذو ذكريات كثيرة، وقد أتفق معك فيما تذهب إليه، ولكن هذا لن يغير شيئاً. فأنا أخضع للجيش، ولرؤية قادتي السياسية.

– وثبت خطأ ممارساتكم.

ضحك العقيد **لانسر** بمرارة، وقال:

– أنا فرد، ولي ذكريات. قد أتفق معك، وقد أضيف أن العقل العسكري نمطي غير قابل للتعلم، ولا يستطيع إدراك ما وراء القتل. فالقتل وظيفته، لكني لا أستسلم لذكرياتي، إذ إن عليَّ إطلاق النار على عامل منجم الفحم علناً. ونظرياً سيمنع ذلك الآخرين من قتل رجالنا.

– إذنْ لا فائدة من الحديث.

– يجب أن نفعل، نريدك أن تساعدنا.

– ما عدد الرجال الذين قتلوا جنودنا بالمدافع الرشاشة؟

– أوه، أكثر من عشرين جندياً كما أذكر.

– إذنْ أطلق النار عليهم كلهم، وعندئذٍ سأدين **مورين**.

– أأنت جاد فيما تقوله؟

– نعم.

– هذا طلب لا يمكن تنفيذه.

– أعرف. ولا يمكنني تنفيذ ذلك بالمقابل!

– إذنْ سنضطر أن نعين السيد **كوريل** عمدة للمدينة.

ثم رفع العقيد **لانسر** رأسه ناحية العمدة **أوردن**، وسأله إن كان سيبقى حتى وقت المحاكمة. فأجاب قائلاً:

– نعم، حتى لا يشعر **أليكس** بأنه وحيد في هذا المكان.

شعر العقيد **لانسر** برغبة في مشاركة العمدة **أوردن** فيما يفكر فيه، ويجول في خاطره، وقال:

– لقد توليت المسؤولية، وعلى كل منا أن يكون على قدرها، لديَّ مهمة عليَّ إنجازها.

– أمهمتك صعبة؟ مستحيلة؟ عمل لا يمكن إنجازه؟

– هي كذلك، وصفك صحيح.

أضاف العمدة **أوردن** ليبين ما يقصده:

– لا يستطيع أحد أن يحطم روح الإنسان إلى الأبد.

أطرق العمدة **أوردن** برأسه نحو الطاولة، ومن دون أن يرفع نظره قال:

– بدأت الثلوج تتساقط؛ لم تنتظر حلول الليل. أحب رائحة الثلج؛ حلوة وباردة.

الفصل الرابع

عند الحادية عشرة تساقطت الثلوج بغزارة، كتل كبيرة وناعمة، السماء لا تُرى، والناس يركضون. تراكمت الثلوج على الأبواب حول التمثال في ساحة البلدة، وعلى القضبان الممتدة من المنجم إلى الميناء، وانزلقت العربات والناس يدفعونها. خيمت على المدينة ظلمة أعمق من الغيم، ظلمة كراهية وكآبة. هرع الناس إلى بيوتهم، عيون باردة مغتمة تسمَّرت خلف الستائر، تنظر إلى الجنود والدوريات. وفي السوق يشتري الناس حاجيات بسيطة للغداء، يأخذون البضاعة، يدفعون ثمنها، ثم يغادرون من دون أن يتبادلوا مع البائع التحية.

في غرفة الرسم بالقصر أُضيئت الأنوار، فأخذت تنعكس على الثلج المتساقط في الخارج. وبدأت إجراءات المحاكمة. كان العقيد **لانسر** على رأس الطاولة، إلى يمينه الرائد **هنتر**، ثم الملازم **توندر**، وكان النقيب **لوفت** يجلس على مسافة منهم، وفي يده عدد من الأوراق. وإلى يسار العقيد **لانسر** جلس العمدة **أوردن**، وبجانبه الملازم **براكل** الذي كان يكتب على أوراق أمامه. وقرب الطاولة، وقف حارسان يعتمر كل منهما خوذة، ويمسك بندقية مزودة بحربة. كانا أشبه بتمثالين خشبيين، وبينهما وقف **أليكس مورين**، شاب ضخم الجثة ذو جبهة عريضة، وعينين غائرتين وأنف حاد طويل، وفم كبير ومثير، وكتفين عريضين. مد يديه المكبلتين أمامه، يشبكهما ويفتحهما. كان يرتدي بنطالاً أسود، وقميصاً أزرق مفتوحاً عند الرقبة، ومعطفاً داكناً لامعاً من أثر الاهتراء.

علا صوت النقيب **لوفت**، وهو يقرأ من الورقة:

– أُمر **أليكس** بأن يعود إلى عمله، ولكنه أبى، ثم هجم السجين على النقيب **لوفت** بفأس كان يحملها، وأراد النقيب **بنتيك** أن يحول دون وقوع الأمر.

سعل العمدة **أوردن**، وتوقف النقيب **لوفت** عن القراءة، وطلب العمدة **أوردن** من **أليكس** الجلوس، ثم أمر الحراس بأن يوفروا له كرسياً ففعلوا. اعترض النقيب **لوفت**:

– جرت العادة أن يبقى السجين واقفاً.

– دعه يجلس. لن يعلم أحد بذلك، وسجل في محضرك أنه كان واقفاً في أثناء المحاكمة.

– لم نعتَدْ تزوير التقارير.

كرر العمدة **أوردن** أمره طالباً من **أليكس** الجلوس، فجلس وكان الاضطراب بادياً عليه. صرخ النقيب **لوفت**:

– هذا يتعارض مع كل..

قاطعه العقيد **لانسر**:

– لا مانع من جلوسه.

تنحنح النقيب **لوفت**.

– تعرَّض النقيب **بنتيك** لضربة سحقت جمجمته، وهناك تقرير طبي مرفق، أتود أن أقرأه سيدي؟

– لا داعي، استعجلْ. لِنُنْهِ الأمر بسرعة.

– شهد الواقعة بعض جنودنا، وأرفقت أقوالهم، وحكمت المحكمة العسكرية بأن السجين مذنب، وأوصت بإعدامه، هل أقرأ لك سيدي أقوال الشهود؟

أجاب العقيد **لانسر** بالنفي، ثم التفت إلى **أليكس** وسأله:

– أتنكر جريمة القتل التي ارتكبتها، وراح ضحيتها النقيب **بنتيك**؟

– لقد ضربتُه فقط، ولم أكن أنوي قتله.

قال العمدة **أوردن**:

– عمل جيد **أليكس**.

وتبادلا النظرات وكأنهما صديقان.

قال النقيب **لوفت**:

– أتقصد أنه قُتل على يد شخص آخر؟

– لا أعرف. ضربتُه فقط، ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك، فقد تعرضت للضرب.

قال العقيد **لانسر**:

– هل لديك أقوال أخرى؟ عموماً لن يتغير الحكم، ولكننا سنستمع إليك.

قال النقيب **لوفت**:

– مع كامل احترامي سيدي، ولكن لا ينبغي قول ذلك، فهذا يشير إلى أن المحكمة ليست محايدة.

ضحك العمدة بسخرية، فابتسم العقيد له، ثم كرر ما قاله.

– ألديك أقوال أخرى أو مبررات أو تفسيرات تدعم موقفك؟

شعر **أليكس** بالحرج عندما أراد رفع يد واحدة، فارتفعت الأخرى معها، وقال:

– كنتُ غاضباً، مزاجي سيئ جداً، أمرني بأن أعمل، وأنا رجل حر، ولم أشعر بنفسي وأنا أهوي بالفأس عليه. لم أقصد ضربه. وأشار **أليكس** إلى النقيب **لوفت**:

– هذا مَن أردت ضربه.

قال العقيد **لانسر**:

– لا يهمني مَن أردت ضربه، فالأمر واحد، لأنك أزهقت روحاً، هل أنت آسف على فعلك؟

واستند العقيد إلى الطاولة، وأشاح بوجهه وقال:

– سيكون اعتذاره أمراً جيداً يُدوّن في السجل.

– لست آسفاً. لقد أمرني بالعودة إلى العمل. أنا رجل حر، وكنت عضواً في المجلس البلدي.

– إذا كان الحكم الذي سيصدر عليك هو الموت، ألن تندم على ما اقترفته يداك؟

أطرق **أليكس** برأسه، وبدأ يفكر، ثم قال:

– لن أندم. (عاد يفكر) هل تعني أنه إن عاد بي الزمن فهل كنتُ سأفعل ما فعلت؟

– هذا ما أقصده.

– بصراحة، لا أشعر بالندم.

طلب العقيد **لانسر** من النقيب **لوفت** أن يسجل أن السجين كان نادماً، ثم التفت إلى **أليكس**:

– الحكم لن يتغير، ولن تتساهل المحكمة معك. صدر حكم بأنك مذنب، ونحكم عليك بالإعدام الفوري. لا أرى سبباً لإطالة الأمر أكثر من ذلك.

والتفت إلى النقيب **لوفت** يسأله هل هناك أمر يود إضافته. صرخ العمدة **أوردن**:

– نعم، هناك أمر ما، لقد تجاهلتموني.

نهض العمدة من مكانه، واتجه إلى **أليكس**، الذي وقف باحترام كما اعتاد أن يفعل. فقال العمدة:

– أليكس، أنا العمدة المنتخب.

– أعرف ذلك سيدي.

– **أليكس** هؤلاء محتلون، واستولوا على بلادنا بالمفاجأة والقوة.

تدخل النقيب **لوفت:**

– سيدي، لا يُسمح بهذا.

صرخ العقيد **لانسر:**

– اخرس، دعه يتكلم، فذلك أفضل لنا، أم تفضل أن يكون حديثهما همساً وراءنا لا نسمعه.

وواصل العمدة **أوردن** حديثه، وكأنه لم تتم مقاطعته:

– أليكس، عندما باغتونا كان الناس في حيرة وربكة، وأنا مثلهم. لم نستطِع حينئذٍ أن نفعل شيئاً أو نفكر، غضبك هو الفعل الأول الواضح للرفض، وهو بداية الغضب الذي سيعم البلدة. أعرف أنهم في المدينة يشكُّون في أمري، وأني أتعامل مع الغزاة، ولكن بإمكاني أن أوضح ذلك للناس فيما بعد، وما يهمني هو أنت، ستموت، أريدك أن تعرف أني أقف في صفك، وأني غير راضٍ عن المحتلين.

أطرق **أليكس** برأسه، ثم رفعه قائلاً:

– أعرف يا سيدي.

علا صوت العقيد **لانسر:**

– هل فرقة الإعدام جاهزة؟

– إنها في الخارج سيدي.

– ومَن أمرها؟

شد الملازم **توندر** جسده، وقال:

– أنا سيدي.

قال العمدة **أوردن** بهدوء:

– هل أنت خائف يا **أليكس؟**

– نعم سيدي.

– لا أستطيع أن أطلب منك ألا تخف، لأني سأشعر بذلك لو كنت مكانك، بل حتى آلهة الحرب الشباب يخافون هذه اللحظة.

قال العقيد **لانسر:**

– استدعِ فرقتك أيها الملازم **توندر.**

نهض الملازم **توندر**، وفتح الباب:

– هي هنا سيدي.

وظهر رجال يرتدون الخوذ. قال العمدة **أوردن:**

– رافقهم يا **أليكس**، ولكن اعلمْ أنهم لن يحظوا بالراحة حتى يرحلوا أو يموتوا، الناس سيتحدون بسببك. إنه أمر محزن، ولكنه هدية بسيطة أقدمها لك. أعدك أنهم لن يرتاحوا أبداً.

أغمض **أليكس** عينيه، واقترب منه العمدة وقبّله، ثم قال:

– وداعاً **أليكس.**

قبض الجندي ذراع **أليكس** الذي لم يفتح عينيه. خرجوا من الباب، فاستدارت فرقة الإعدام وبدأت تتبعهم، خرجوا من المنزل والثلج يخنق أصوات خطواتهم. جلس الرجال حول الطاولة صامتين، ثبت العمدة **أوردن** نظراته على النافذة. ولمح يداً

تمسح الثلج عن النافذة بسرعة راسمة دائرة صغيرة. اندهش لوهلة، ثم أبعد عينيه بسرعة، وقال للعقيد **لانسر**:

– آمل أنك تعرف ما تفعله.

وبينما كان النقيب **لوفت** يجمع أوراقه، سأله العقيد **لانسر**:

– هل ستعدمونه في الميدان أيها النقيب؟

– نعم سيدي، لا بد أن يُعدَم في مكان عام.

قال العمدة **أوردن**:

– آمل أنك تعرف ما تفعله أيها العقيد.

قال العقيد **لانسر**:

– يا رجل، سواء عرفنا أم لم نعرف، ولكنْ هذا ما يجب القيام به.

ساد صمت، الرجال في الغرفة يصيخون السمع. مضى وقت فدوَّى إطلاق نار من بعيد، تنهد العقيد **لانسر**، ضرب العمدة **أوردن** جبهته بكف يده، وسحب نفساً عميقاً، علا صراخ في الخارج. فتحطم زجاج النافذة، وارتجّ جسد الملازم **براكل**، ووضع كفه على كتفه بحركة لا إرادية، ثم وضعها أمام عينيه يحدق فيها، قفز العقيد **لانسر** يصرخ يسأله إن كانت إصابته بليغة، ثم تمتم:

– ها قد بدأ الأمر.

– إصابة في كتفي يا سيدي.

أدرك العقيد **لانسر** بصفته قائداً أن عليه تولي المسؤولية في هذه الأحداث المفاجئة:

– النقيب **لوفت**، عليك أن تتبع الآثار على الثلج لتصل إلى الفاعل، وابدأ بتفتيش كل منزل بحثاً عن الأسلحة، وإذا احتُجز رهائن، فعليك تحريرهم.

ثم التفت إلى العمدة:

– وأنت يا سيدي، ستُحتجَز في مكان آمن لسلامتك. أرجو أن تتفهم الأمر. (وصرخ) سنقتل خمسة، عشرة، مئة، مقابل شخص واحد.

ضحك العمدة **أوردن**:

– رجل بذكريات معينة.

توقَّف العقيد **لانسر**، ونظر إلى العمدة، وفهِم كل منهما الآخر، وشد العقيد **لانسر** جسده، وعقد حاجبيه، قائلاً بحزم:

– رجل بلا ذكريات. (ثم التفت نحو الملازم **براكل**) اجمعوا كل الأسلحة التي في المدينة، واقبضوا على كل من يقاوم، وأسرعوا قبل أن تغطي الثلوج آثارهم.

ارتدى طاقم العقيد خوذهم، واستلوا مسدساتهم، وهرعوا إلى الخارج، وخطا العمدة **أوردن** إلى النافذة المكسورة، وقال بحزن:

– رائحة الثلج باردة وجميلة.

الفصل الخامس

مرَّت أيام وأسابيع طويلة، أشهر تجرّ جراً، تساقطت الثلوج وذابت، ثم تساقطت مرة أخرى وذابت، ثم تساقطت وظلت عالقة. وغطت الثلوج مباني البلدة المظلمة حتى أصبحت كأنها تتزين بأجراس وقلائد وعباءات بيضاء. والخنادق تخترق طبقات الثلوج المتكدسة عند الكنيسة لتصل إلى أبواب المنازل. شتاء قارس. تصل قوارب نقل الفحم إلى ميناء المدينة فارغة، وتغادر ملأى بالفحم. الفحم الذي كان يخرج من الأرض بصعوبة، وأصبح العمال الجيدون في المصنع يرتكبون كثيراً من الأخطاء. بل لقد أصبحوا كُسالى طوال الوقت. كما أصبحت الآلات تتعطل ويستغرق إصلاحها وقتاً طويلاً، ويترقب أهل البلدة المغلوب على أمرها فرصة للانتقام.

شعر الخونة بالقلق، إذ كانوا يعتقدون أنهم سينعمون بامتيازات أكثر، ودولة أفضل، وأسلوب حياة مغاير. ولكن معاملة الناس لهم تغيرت، ينظرون إليهم بحقد وغضب، ولا يتحدثون معهم أبداً. كان الموت يحوم في الهواء وينتظر، حوادث على خطوط السكك الحديدية التي كانت تتشبث بالجبال، وتربط البلدة الصغيرة ببقية أنحاء البلاد. انهيارات ثلجية كثيرة بعثرت خطوط السكك الحديدية، وأوقفت القطارات إلى أن يتم فحص المسارات. الناس تَقتل وتُقتل بدافع الانتقام، ولا فرق بين محتل وصاحب بلد، ولا أثر للقاتل. الشباب يفرون إلى إنجلترا، قصَف الإنجليز منجم الفحم، فدمروه جزئياً. قتلوا أصدقاء وأعداء فيه، ولم يجنِ ذلك إلا تنامي الكراهية مع فصل الشتاء. كراهية صامتة. كراهية غاضبة. كراهية منتظرة. تحكَّم الغزاة في إمدادات الطعام، يوفرونها للمطيعين، ويمنعونها عن العصاة، ليتحول الشعب كله إلى الطاعة الباردة. كانت هناك نقطة لا يمكن تجاوزها في حجب الطعام، فالرجل الجائع لا يمكنه أن يستخرج الفحم. كان الحقد عميقاً في عيون الناس، يتأجج بعيداً عن السطح.

تمَّت محاصرة المنتصر، وأصبح رجال الكتيبة يرزحون بين أعداء صامتين، لم يكن بوسع أي منهم أن يخفف من حذره ولو للحظة. وإن فعل فسيختفي، ويغطي الثلج جثته. وإن ذهب أحدهم إلى امرأة اختفى، وإن خرج ليشرب تستقبل ندف الثلج جثته. فانطوى أفراد الكتيبة على أنفسهم، لا يستطيعون الغناء والرقص إلا معاً. ثم توقف الرقص، وبقي الغناء ،كلمات تعبر عن شوقهم إلى وطنهم. انحصرت أحاديثهم حول الأصدقاء والأقارب الذين يحبونهم، يشتاقون إلى الدفء والحب. بإمكان الرجل أن يكون جندياً ساعات في اليوم، أشهراً في السنة، ولكنه يحتاج إلى العودة لحياته الطبيعية. يحتاج إلى فتيات، وإلى شرب النبيذ، وسماع الموسيقى. ويبحث عن الراحة، وعندما يحرم منها تصبح مرغوبة بصورة لا تقاوم.

كانوا طوال الوقت يفكرون في الوطن، كرِه المحتلون البلدة التي غزوها، وأصبحوا قساة مع الناس الذين كانوا جفاة معهم. وبمرور الوقت بدأ خوف ينمو في قلوب الغزاة، خشية ألا ينتهي الأمر أبداً، وألا يستطيعوا الاسترخاء والعودة إلى وطنهم. خوف من أن ينهزموا يوماً، ويُطاردوا عبر الجبال كالأرانب، فكراهية أهل البلدة لهم لم تتوقف. تنجذب دوريات الغزاة إلى الأضواء والضحك كما تنجذب الفراشات إلى الضوء. يقتربون فيتوقف الضحك وينطفئ الدفء، وينقلب الناس إلى باردين مطيعين. وعندما يشم الغزاة رائحة طعام زكية تنبعث من أحد المطاعم يدخلون، ويطلبون الطعام، فيكتشفون أنه قد أُغرق بالملح والفلفل. يقرأ الجنود الأخبار من صحف وطنهم، ومن الصحف التي تصل إليهم من البلدان المحتلة. تصل إليهم أخبار طيبة ترفع معنوياتهم، وبعد أن كانوا يصدقونها، لم يعودوا كذلك. وتمكن الرعب من قلوبهم، إذا انهار الوطن، فلن يصلنا ذلك، وسيفوت الأوان. الناس هنا لن يرحمونا، سيقتلوننا.

يتذكرون قصص رجالهم وهم يتراجعون من بلجيكا، وهم ينسحبون من روسيا. ويتذكر المثقفون منهم الانسحاب المأساوي من روسيا، عندما ذاقت كل مِذراة فلاح من دمائهم، وغطت الجثث الثلوج. يعرفون أنهم إذا انهاروا أو قلَّ حذرهم أو غطوا في نوم عميق، فسيتكرر الأمر. ويحدث لهم مثل الذي حدث في موسكو. فكان نومهم قلقاً، وأيامهم مشحونة بالاضطراب. يطرحون أسئلة لا يستطيع الضباط الإجابة عنها. لأنهم ببساطة لا يعرفون الإجابة، وأصبحوا يكذبون التقارير المرسلة من الوطن. وهذا ما حدث، فقد أصبح الغزاة يخشون المهزومين. لازمهم القلق، وأعصابهم مشدودة دوماً. لازَمَهم صمت بارد كئيب، وبدؤوا يطلقون النار على الظلال في الليل. وفي أسبوع واحد أُصيب ثلاثة جنود بالجنون، كانوا يصرخون طوال

اليوم، فأعيدوا إلى الوطن. ربما جن آخرون أيضاً، ولكنهم فزعوا من الموت الرحيم الذي ينتظرهم في وطنهم، فتوطَّن الخوف مساكنهم، وتسلل إلى الدوريات، فجعلهم قساة.

انطوت السنة وطالت الليالي. حل الظلام في الثالثة ظهراً، ولم يشرق النور إلا في التاسعة صباحاً. ولم تشرق الأضواء المبهجة على الثلوج، لأن القانون ينص على أن تكون النوافذ قاتمة سوداء، خوفاً من القاذفات. وبرغم ذلك يظهر دائماً ضوء بجوار المنجم عند اقتراب القاذفات الإنجليزية. في أحيان كثيرة أطلق الجنود النار على رجل يحمل فانوساً، وفي إحدى المرات أُطلِقت النار على فتاة تحمل مصباحاً يدوياً. لم يغير ذلك شيئاً، فلا شيء يُعالَج بإطلاق النار.

كان الضباط صورة طبق الأصل من جنودهم، إلا أنهم كانوا أكثر تقيداً بفضل تدريباتهم، وأكثر خبرة بسبب تحملهم مسؤوليات أكبر. لكن المخاوف كانت نفسها، مدفونة في الأعماق. والأشواق نفسها، محبوسة في القلوب. والضغط الذي عليهم كان مضاعفاً، لأن المهزومين يراقبونهم بحثاً عن أخطائهم، وجنودهم يراقبونهم بحثاً عن ضعف. لذا كانت أرواحهم على الحافة، وأعصابهم مشدودة تلامس نقطة الانهيار. وكان الغزاة يرزحون تحت وطأة ضغط مرعب، ويعلم كلا الطرفين –الغزاة وأهل البلدة– ما سيحدث عند ظهور بوادر السقوط.

فارقت الراحة من كان في الغرفة العلوية من قصر العمدة، الأوراق السوداء ملصقة على النوافذ لتمنع تسرب الضوء إلى الخارج. أكوام من المعدات الثمينة التي لا يمكن تعريضها للخطر متناثرة في الغرفة، وخوذات ونظارات وأقنعة. ولكن الانضباط في الغرفة كان أكثر تساهلاً مقارنة بالأماكن الأخرى. يدرك الضباط ضرورة وجود بعض التراخي لكيلا تتعطل الآلة. وعلى الطاولة فانوسان يعملان بالبنزين، يلقيان ضوءاً ساطعاً قوياً تنعكس من أثره ظلال كبيرة على الجدران. ولاحتراقهما هسهسة تسري في الغرفة مثل همس.

واصل الرائد **هنتر** عمله، لوحة الرسم أمامه دائماً والضوء خلفه، مسطرة المثلث تتحرك على اللوحة، قلمه مشغول دائماً، فالقنابل تدمر بقدر ما ينجز. في هذا المكان وجد ما يتجاوز قدرته على التخطيط والإنجاز، لم يكن يشعر بالحزن، لأن البناء متعته. يجلس الملازم **براكل** إلى الطاولة يقرأ صحيفة، وذراعه في جبيرة، وعلى كرسي آخر كان الملازم **توندر** يكتب رسالة، يرفع عينيه من حين لآخر إلى السقف، ليجد كلمات مناسبة يكتبها في رسالته. قلب الملازم **براكل** صفحة من الصحيفة، وقال:

– أستطيع رؤية كل متجر في هذا الشارع ولو كانت عيناي مغمضتين. لم يهتم أحد بما قاله، فالرائد **هنتر** يتابع عمله، والملازم **توندر** كتب كلمات أخرى. وبرغم ذلك واصل الملازم **براكل** حديثه:

– خلف هذا المكان مطعم بوردنز، لا يمكنكما رؤيته من النافذة.

لم يرفع الرائد **هنتر** عينيه عن اللوحة:

– أعرف المطعم، يقدم محاراً جيداً.

– بالتأكيد المحار عنده لذيذ، وكل ما يقدمه القائمون عليه جيد، ولم يسبق أن تناولت شيئاً سيئاً عندهم، والقهوة..

رفع الملازم **توندر** رأسه عن رسالته.

– لن يقدموا شيئاً الآن، سواء المحار أو القهوة.

قال الملازم **براكل**:

– لا أعرف شيئاً عن ذلك، لقد كانوا يقدمون الطعام لنا، ولا أظن أنهم سيغيرون ذلك. (صمت ثم تابع) كانت هناك نادلة.

وحرك يده السليمة يصف شكل جسدها، ثم تابع يصف لون شعرها الأشقر. ونظر إلى الصحيفة. ثم تمتم:

– عيناها غريبتان، رطبتان دائماً، وكأنها كانت تضحك أو تبكي للتو.

نظر إلى السقف وأكمل بهدوء:

– خرجت معها ذات مرة، كانت رقيقة، أتساءل عن سبب عدم عودتي إليها مرة أخرى، ولا أعرف إن كانت لا تزال تعمل في المطعم.

رد الملازم **توندر** بحزن:

– لا أعتقد، ربما تعمل في المصنع الآن.

ضحك الملازم **براكل**:

– آمل أنهم لا يوزعون الطعام على الفتيات في المنزل.

سأله الملازم **توندر**:

– لماذا تفكر في ذلك؟

مازحه الملازم **براكل**:

– أنت لا تهتم بالفتيات.

– كل ما هنالك أني لا أسمح لهنَّ بالتسلل إلى حياتي.

– يبدو أنهن يفعلن بك ذلك دائماً.

أراد الملازم **توندر** أن يغير الموضوع:

– أكره هذه الفوانيس، متى سيتم إصلاح المولد الكهربائي؟

رفع الرائد **هنتر** عينيه عن لوحته:

– يُفترض أن يعمل الآن، أوكلت مهمة إصلاحه إلى رجال جيدين، وأعتقد أني سأقوم بمضاعفة الحراسة على المولد الآن.

سأله الملازم **براكل**:

– وهل قبضتم سيدي على الشخص الذي أعطب المولد؟

– نشك في خمسة رجال، قد يكون أحدهم، لذلك قبضت عليهم كلهم. من السهل حرق المولد إذا كنت تعرف كيفية فعل ذلك، قصّر الدائرة وسيدمر نفسه بنفسه. (رفع رأسه) يجب أن يعود الضوء الآن.

لم يبعد الملازم **براكل** عينيه عن المجلة، وقال:

– أتساءل عن وقت استبدالنا، وعودتنا إلى الوطن لبعض الوقت، أيها الرائد، ألا تشتاق إلى منزلك؟

رفع الرائد **هنتر** رأسه. ففضحت ملامحه اليأس الذي كان يشعر به، وردَّ:

– نعم أشتاق إلى الوطن. بنيتُ هذا المسار أربع مرات، وفي كل مرة تدمره قنبلة. لا أعرف سبب تركيزهم عليه. لقد أتعبني هذا الجزء من السكة الحديدية، عليَّ تغيير الطريق في كل مرة بسبب الحفر، ولا يوجد وقت لملئها. الأرض في ذلك المكان متجمدة، ويبدو أن العمل أصبح بلا طائل، وأكثر من اللازم.

فجأةً اشتعلت الأضواء الكهربائية، ومدَّ الملازم **توندر** يده وأطفأ الفانوسين، فعمَّ الصمت.

– أشعر بالراحة. إن الصوت الذي تصدره الفوانيس يزعجني، وكأن هناك همساً حولي. (طوى الرسالة التي كان يكتبها) هناك أمر غريب، الرسائل لم تعُد تصل إلينا، فأنا لم أتلقَّ إلا رسالة واحدة في أسبوعين.

قال الملازم براكل:

– ربما لا يكتبون لك من الأساس.

تغيرت ملامح الملازم **توندر**، وقال:

ربما.

ثم التفت إلى الرائد هنتر:

– إذا حدث شيء في منزلي، أتعتقد أنهم سيخبرونني؟ أعني وفاةً أو شيئاً من هذا القبيل؟

– لا أعرف.

– أود الخلاص من هذه الحفرة الملعونة التي سقطنا فيها.

قاطعه الملازم **براكل**:

– كنت أعتقد أنك ستكمل حياتك هنا بعد أن تنتهي الحرب. (بدأ يقلد صوته) هناك مزارع جميلة هنا، إذا جمعنا أربعاً أو خمساً منها معاً، فستكون مكاناً لطيفاً للاستقرار. ألم يكن هذا ما تريده؟ أن تكون سيداً صغيراً للوادي؟ ألم تقل إن الناس هنا طيبون وممتعون، وإن المكان جميل، فيه مروج وغزلان وأطفال صغار؟

– اصمت، لا تكمل. الناس هنا لا يُطاقون، باردون، لا ينظرون إليك أبداً، ولا يتحدثون. إنهم كالموتى، يطيعون فقط، وفتياتهم جامدات.

سُمع طرق خفيف على الباب، ثم دخل **جوزيف** يحمل دلواً مملوءةً بالفحم. مشى بهدوء في الغرفة، ثم وضع الدلو على الأرض بلطف شديد، ولم يصدر أي صوت. استدار من دون أن يرفع عينيه عائداً إلى الباب. ناداه الملازم **براكل** بصوت مرتفع، فاستدار **جوزيف** دون أن ينطق بكلمة، أو أن يرفع عينيه:

– **جوزيف**، هل هناك نبيذ؟

فهز **جوزيف** رأسه نافياً. نهض الملازم **توندر** غاضباً، وصرخ بأعلى صوته:

– أجب أيها الخنزير، أجب بالكلمات.

لم يرفع **جوزيف** رأسه، وتحدث بصوت محايد:

– لا يا سيدي، ليس لدينا خمر.

وقف **جوزيف** ساكناً، وأكمل الملازم **توندر** صراخه:

– وماذا تريد الآن؟

– أريد أن أغادر الغرفة.

– اغرب عن وجهي، اللعنة عليك.

استدار **جوزيف** بهدوء، وغادر الغرفة، ومسح الملازم **توندر** وجهه، فنظر إليه الرائد **هنتر**، وقال:

– لقد سمحت له بأن يهزمك بسهولة.

ارتجف الملازم **توندر**، وبَان ذلك على صوته:

– أريد أن أعود إلى المنزل، وأرغب بفتاة. هناك واحدة جميلة في هذه البلدة، أريدها، إنها شقراء، وتسكن بجوار متجر الحديد.

قال الملازم **براكل**:

– عليك أن تنتبه لنفسك، لقد أصبحت عصبياً جداً.

وانطفأت الأنوار مرة أخرى، وعمَّ الظلام، وتمتم الرائد **هنتر** متضايقاً بينما كانت أعواد الثقاب تُشعَل لإضاءة المصابيح.

– ظننتُ أني قبضت على المخربين. يبدو أن هنالك واحداً آخر، لا يمكنني أن أركض طوال الوقت إلى المولد الكهربائي، لا أعرف كيف فعلوها رغم أني وضعت جنوداً جيدين للحراسة.

تمكَّن الملازم **توندر** من إشعال المصابيح، واحتدَّ الرائد **هنتر**:

– أيها الملازم، إذا كنت في حاجة إلى الحديث، فتكلم إلينا. لا تسمح للعدو بأن يسمعك وأنت تتحدث بهذه الطريقة،

فهذا أكثر ما سيسرهم. سيدركون أن أعصابك بدأت تتلف.

لم يتمالك الملازم **توندر** أعصابه، الضوء يسطع بحدة على وجهه، وعاد هسيس المصابيح الذي يزعجه، فبدأ يتذمر:

– العدو في كل مكان، في كل رجل وطفل وامرأة. تطل وجوههم البيضاء من خلف الأبواب والستائر، رغم أنّنا هزمناهم، وانتصرنا في أماكن كثيرة من العالم. وهم لا يزالون طائعين ينتظرون؛ ينتظرون هزيمتنا. سيدي الرائد، هل ما نتعرض له هنا يختلف عن كل ما يواجهه جنودنا في أماكن أخرى؟

– لا أعرف.

– هذا هو الأمر. لا نعرف شيئاً، والتقارير تقول إن الدول المحتلة تهلل لجنودنا، وتشجع النظام الجديد. أتساءل عما يكتب في التقارير بشأننا. من المؤكد أنها تذكر أننا مبتهجون، والناس يحبوننا ويلقون الزهور في طريقنا، أوه، لقد تذكرتهم، تذكرت الناس هنا، إنهم فظيعون، لا أتخيلهم وهم يقفون ينتظروننا وسط الثلوج.

قال الرائد **هنتر**:

– والآن بعد أن بحت بما في جوفك، أتشعر بتحسن؟

ضرب الملازم **براكل** الطاولة بقوة بقبضة يده.

– لا ينبغي له أن يتحدث بهذه الطريقة، إنها أمور يجب أن يحتفظ بها لنفسه. إنه جندي، وعليه أن يكون كذلك.

انفتح الباب، ودخل النقيب **لوفت** والثلج يغطيه، وأنفه أحمر متورم. خلع خوذته، وتساقط الثلج على الأرض. قال:

– أوه، يا لها من مهمة؟

سأله الرائد **هنتر**:

– ألم تنتهِ المشكلات؟–لا تنتهي، أرى أنهم قد تمكنوا من إعطاب مولدك مرة أخرى، وأظن أنني أصلحت بعض الأضرار في المنجم، أتمنى ألا تعود.

سأله الرائد **هنتر** عما واجهوه.

– المعتاد، تقل سرعة عربة، ثم تُدمَّر، هذه المرة رأيت الفاعل، فأطلقت النار عليه. (لمعت فكرة في ذهن النقيب لوفت) وجدت الحل للتو سيدي. نظراً إلى أني لا أستطيع تجويع الرجال، فسأجعلهم يأكلون في المنجم، وسأوقف توزيع الطعام في المنازل. مَن لا يعمل لا يحصل على طعام لعائلته، فإما أن يعملوا، وإما أن يجوع أطفالهم.

– أتسمع ما يقولونه أو يتحدثون به فيما بينهم؟

ضاقت عينا النقيب **لوفت**.

– لا شيء على الإطلاق، ولكنْ سنرى الآن هل سيخرج الفحم أم لا.

ثم خلع معطفه، وهزه لينظفه من ندف الثلج، سقطت عيناه على الباب، فرآه مفتوحاً، وتحرك بصمت وخفة إليه، وفتحه بسرعة، ثم أطل برأسه إلى الخارج، وأغلقه، وقال:

– أظن أني أغلقته.

رد الرائد **هنتر**:

– لقد فعلت ذلك.

لا يزال الملازم **براكل** يقلب صفحات الصحيفة.

– سيدي النقيب **لوفت**، انظُر إلى هذه الصورة، بنادق ضخمة يستخدمها جنودنا في الشرق. لم يسبق لي أن رأيت مثلها من قبل.

– أوه نعم، ورأيتها وهي تطلق النيران، إنها رائعة، لا شيء بإمكانه أن يصمد في وجهها.

سأله الملازم **توندر**:

– سيدي النقيب، هل تصل إليك رسائل من الوطن؟

– أحياناً.

– هل الأحوال جيدة هناك؟

– إنها رائعة، الجيوش تتقدم في كل مكان.

– ألم يهزم البريطانيون إلى الآن؟

– إنهم يهزمون في كل اشتباك.

– ولكنهم يواصلون القتال؟

– إنها بضع غارات جوية لا أكثر.

– والروس؟

– انتهى أمرهم.

قال الملازم **توندر** بإصرار:

– ولكنهم ما زالوا يواصلون القتال.

– مناوشات قليلة لا أكثر.

سأل الملازم **توندر**:

– هذا يعني أننا على وشك الانتصار.

قال النقيب **لوفت**:

– نعم، لقد انتصرنا.

اقترب منه الملازم **توندر**:

– أتصدق ذلك؟

قاطعه الملازم **براكل**:

– أرجوك، لا تبدأ ذلك مرة أخرى.

عبس النقيب **لوفت** في وجه الملازم **توندر**، وقال:

– لم أفهم قصدك.

قال الملازم **توندر**:

– أعني، هل سنعود إلى المنزل قريباً؟

قال الرائد **هنتر**:

– سيستغرق ذلك وقتاً، لا يمكن إقرار نظام جديد في يوم واحد.

رد الملازم **توندر**:

– أتعني أن ذلك قد يستمر طوال حياتنا؟

قال الملازم **براكل** متذمراً:

– أرجوك، لا تدعه يبدأ مرة أخرى.

اقترب النقيب **لوفت** من الملازم **توندر**:

– أيها الملازم، لا أحب نبرة الشك في أسئلتك.

رفع الرائد **هنتر** نظره عن اللوحة، وقال:

– لا تكن قاسياً معه يا **لوفت**، إنه متعب، ونحن كذلك أيضاً.

رد النقيب **لوفت**:

– وأنا متعب أيضاً، ولكني لا أسمح للشك ومشاعر الخيانة بأن تتسلل إليَّ.

قال الرائد **هنتر**:

– لا تزعجه، ألم ترَ العقيد؟

– إنه يُعِد تقريره، ويطلب تعزيزات.

– إنها مهمة أكبر مما اعتقدنا.

سأل الملازم **براكل** بحماسة:

– وهل ستصل إلينا التعزيزات؟

– وكيف أعرف؟

ابتسم الملازم **توندر**، وقال:

– تعزيزات. أو ربما بدلاء، وسيكون باستطاعتنا حينها العودة إلى الديار لبعض الوقت. ويصبح بإمكاني أن أمشي في الشارع، والناس يرحبون بي، ويقولون: لقد مر جندي من هنا، ويفرحون بمشاهدتي، وأنا أسعد بذلك، ويلتف الأصدقاء حولي، وأتمكن من إدارة ظهري للناس من دون شعور بالخوف.

تذمر الملازم **براكل**:

– لا تبدأ مرة أخرى، رجاء. لا تدعوه يخرج عن سيطرتنا.

اغتاظ النقيب **لوفت**:

– المتاعب التي نواجهها تكفينا، لن نتحمل إصابة بعض الأفراد بالجنون.

كرر الملازم **توندر** حديثه وكأنه لم يهتم بما قاله:

– هل تعتقد أيها النقيب أن البدلاء في طريقهم إلينا؟

– لم أقل شيئاً كهذا.

– ولكنك قلت: قد يحضرون.

– ما قلته هو أني لا أعرف، واعلم أنّنا قد غزونا نصف العالم، ويجب أن نحافظ على ما اكتسبناه مدةً من الزمن، ونحافظ على الأمن في هذه المناطق.

– والنصف الآخر من العالم؟

– سيقاتلون يائسين.

– إذنْ علينا أن ننتشر.

قال النقيب **لوفت**:

– نعم.

وبعصبية وانزعاج قال الملازم **براكل**:

– أتمنى لو يتم إسكاته، وإيقافه عمَّا يقوله.

أخرج الملازم **توندر** منديلاً، وحركه على أنفه، وتحدث كما لو أنه كان يهذي، وبدأ يضحك:

– لقد حلمت حلماً غريباً. لا أعرف هل كان حلماً أو فكرة راودتني.

صرخ الملازم **براكل** طالباً من النقيب إيقافه وإسكاته. وسأل الملازم **توندر**:

– هل هذا المكان محتل؟

أجاب النقيب **لوفت** بنعم. وداخلت نغمة هستيريا ضحكات الملازم **توندر**، وقال:

– نحن مُحتلون وخائفون، محتلون ومحاطون. رأيت حلماً أو كان فكرة. في الخارج بين الثلوج ظلال سوداء، ووجوه تطل من الأبواب، وخلف الستائر وجوه باردة، كان لدي حلم أو فكرة.

– أسكتوه.

– حلمت أن القائد مجنون.

ضحك النقيب **لوفت** والرائد **هنتر**، وقال الأخير:

– عرف الأعداء مدى جنون القائد. يجب أن أرسل هذا إلى الوطن، وستنشره الصحف، لقد عرف الأعداء مدى جنون القائد.

أكمل الملازم **توندر** ضحكه، واختنق وسعل في منديله:

– فتح بعد فتح، أعمق وأعمق، قد يكون القائد مجنوناً، الذباب يتغلب على ورقة الصمغ. الذباب يلتقط ورقة الصمغ التي تُستخدم لصيد الذباب.

صافحه الملازم **براكل** بيده السليمة وقال.

– توقف، أرجوك أن تتوقف، ليس لديك الحق.

شعر النقيب **لوفت** بأن ضحك الملازم **توندر** كان هستيرياً، فصفعه:

– توقف أيها الملازم.

واستمر بالضحك، وعاد النقيب وصفعه مرة أخرى يطلب منه التوقف:

– هل تسمعني؟

توقف ضحك الملازم **توندر**، وساد الهدوء الغرفة إلا من هسهسة الفوانيس. نظر الملازم **توندر** إلى يده مستغرباً، وشعر بحرقة الصفعة، ثم هوى برأسه على الطاولة، وقال:

– أريد العودة إلى المنزل.

الفصل السادس

شارع صغير قريب من ساحة المدينة، فيه محال صغيرة، ومنازل بأسطح مدببة. والثلوج على الأرصفة والشوارع سحقتها الأقدام والخُطا، وتراكمت على الأسوار وقمم السطوح. أُزيلت من النوافذ المغلقة، وجُرِفت بعناية من المسارات التي في الساحة. ليلة مظلمة باردة، والنوافذ مطموسة لا يخرج منها ضوء يجذب القاذفات، والمنازل كتل مظلمة تغطيها الثلوج. الشوارع خالية من الناس بعد فرض حظر التجوال، دورية من ستة رجال يمشطون الشارع، يحملون مصابيح يدوية. ووَقْع أقدامهم الخافتة، وصرير أحذيتهم على الثلوج المكدسة يترددان في الشارع. أشباح ملتحفة بمعاطف كبيرة، يرتدون قبعات تغطي آذانهم وذقونهم وأفواههم، تساقطت عليهم حبات ثلج صغيرة مثل الأرز. كان أفراد الدورية يتحدثون في أثناء سيرهم عن الأشياء التي يتوقون إليها: اللحوم، والشوربة الساخنة، والزبدة الدسمة، والفتيات الجميلات وابتساماتهن وشفاههن وعيونهن، ثمّ يتطرقون أحياناً إلى وحدتهم، والكراهية التي يعانونها جرَّاء ما فعلوه.

وبجوار ورشة الحدادة منزل صغير سقفه مرتفع، ومغطى بالثلج مثل المنازل الأخرى. أبوابه محكمة الإغلاق، ونوافذه لا يدخلها الضوء. وفي الداخل مصباح مشتعل في غرفة المعيشة الصغيرة، وأبواب غرفة النوم والمطبخ مفتوحة. ونار صغيرة في موقد حديدي بجوار الحائط. كانت غرفة دافئة وبسيطة، تغطي أرضيتها سجادة مهترئة، والجدران مغطاة بورق يبعث على الدفء. رُسمت عليه أزهار زنبق ذهبية، وعُلقت على الحائط صورتان، إحداهما لسمكة ميتة على طبق من السرخس، والأخرى لطائر ميت على غصن تنوب. وفي حائط آخر صورة للمسيح وهو يخطو فوق الأمواج متجهاً إلى صيادين يبدو عليهم اليأس. وفي الغرفة طاولة صغيرة مستديرة في المنتصف عليها مصباح كيروسين مغطى بغطاء مزهر، وكرسيان، وأريكة مغطاة ببطانية زاهية، وضوء دافئ وناعم.

يؤدي الباب الداخلي إلى الممر، وعلى كرسي هزاز مريح قديم بجوار الطاولة، جلسَت الشابة الجميلة **مولي مورين** وحيدةً، تفك الخيوط الصوفية من سترة قديمة زرقاء، وتلفها على شكل كرة. كانت الكرة كبيرةَ، وكانت يدا **مولي** تعملان بسرعة. وضعت على الطاولة أغراض الحياكة، إبر، ومقصين كبيرين، ونظارتها بجوارها. لم تكن بحاجة إليها أثناء الحياكة، تلقي نظرة بين الحين والآخر إلى الباب المؤدي إلى الممر، والريح العاصفة ترفق بالمدخنة. ليلة هادئة مملوءة بالثلج، توقفت عن عملها فجأةً، وثبتت يديها، نظرت نحو الباب وأصخت السمع. دورية في الشارع، تلاشى الصوت، مزَّقت **مولي** خيطاً جديداً، ولفت به الكرة. حفيف عند الباب، ثلاث طرقات، نهضت من مكانها.

– نعم، مَن هناك؟

فتحت الباب، فدخلت امرأة ترتدي معطفاً ثقيلاً. كانت عينا الطاهية آني حمراوين، وتلف رأسها بأوشحة. هُرعت إلى الداخل، وكأنها كانت مدربة على المرور بسرعة من الأبواب، وإغلاقها من خلفها. وقفت بأنفها الأحمر تجرُّ أنفاسها، وتتلفَّت في الغرفة. فقالت **مولي** لها:

– مساء سعيد آني، لم أتوقع رؤيتك الليلة، اخلعي ملابسك الثقيلة، واجلسي عند الموقد، الجو بارد جداً في الخارج.

– لقد جلب الجنود الشتاء باكراً. كان والدي يقول إن الحرب تجلب الطقس السيئ أو العكس. لا أتذكر! إنهم قادمون يا **مولي**.

– مَن سيأتي؟

– صاحب السعادة، والدكتور، وابنا **أندرسن** الاثنان.

– إلى هنا؟ لماذا؟.

مدت آني يدها، وقدمت علبة صغيرة لـ **مولي**، وقالت:

– خذيها، سرقتها من طبق العقيد، لحمٌ لكِ.

فتحت **مولي** العلبة، ووضِعت قطعة اللحم في فمها، وتحدثت وهي تمضغ:

– هل تركتِ لكِ شيئاً منها؟
– أنا مَن أطبخها، أحصل دائماً على شيء منها.
– متى سيأتون؟
– ابنا **أندرسن** سيبحران إلى إنجلترا، يجب أن يغادرا، هما مختبئان الآن.
– ولماذا يريدان المغادرة؟
– حطَّم أخوهما **جاك** عربة، وأُطلِقت عليه النار، وبدأ الجنود يبحثون عن بقية رجال الأسرة، كما يفعلون دائماً.
– نعم، أعرف ما يقومون به. من فضلك استريحي يا **آني**.
– لا وقت لذلك، عليّ العودة، وإبلاغ صاحب السعادة أن كل شيء على ما يرام.
– هل رآكِ أحد ما حين حضورك؟
ابتسمت **آني** مفتخرة بنفسها:
– لا تخافي، أنا ماهرة في التسلل.
– وكيف سيتمكن العمدة من الخروج؟
– سينام **جوزيف** في سريره، ويرتدي ملابس نومه، وسيستلقي بجوار السيدة، وذلك إمعاناً في الحيطة والحذر، فإن بحثوا عنه، فسيحسبون **جوزيف** العمدة. (ضحكت) من الأفضل أن يستلقي جوزيف بهدوء.
– إنها ليلة خطيرة للإبحار.
– الإبحار أسلم من أن تُطلَق النار عليهم.
– لديَّ سؤال آخر، ما السبب الذي يدفع العمدة إلى المجيء إلى هنا؟
– لا أعرف، ولكنه يريد التحدث إلى **آل أندرسن**، سأغادر الآن.
– ومتى سيصلون؟
– ربما بعد نصف ساعة، أو ثلاثة أرباع الساعة. سأدخل قبلهم، لا أحد سيهتم بطاهية مسنة.
ثم توجهت نحو الباب، استدارت في وسط الطريق، ونظرت إلى **مولي**:
– لست عجوزاً إلى هذا الحد.
وأغلقت الباب خلفها. أكملت **مولي** الحياكة، ثم خطت إلى الموقد، فأضاءت النارُ وجهَها. حركتها وأضافت الفحم، ثم أغلقت الموقد مرة أخرى، وقبل أن تصل إلى كرسيها سمعت طَرَقات على الباب. ذهبت إلى الممر وقالت:
– مَن؟ ماذا تريد؟
سمعت صوت رجل. فتحت الباب، وبدأ الرجل يكرر:
– لا أريد أن أسبّب لكِ أي أذى.
دخلت **مولي** إلى الغرفة، وتبعها الملازم **توندر** وهو يرتدي معطفه الرمادي. سألته:
– مَن أنت؟ ما الذي تريده؟ لا يمكنك الدخول.
خلع الملازم **توندر** خوذته، وكان يتوسل إليها:
– من فضلك اسمحي لي بالدخول، لن أتسبب بأي أذى.
– ماذا تريد؟
– أريد التحدث إليكِ فقط سيدتي، هذا كل ما أريده، أريد أن أسمعكِ وأنتِ تتحدثين.

– هل هذا أمر؟
– لا يا سيدتي، ولكنني أود لو تسمحين لي بأن أبقى مدة قصيرة، ثم أغادر.
– وما الذي تريده؟
– هل يمكنكِ أن تفهميني؟ بعض الوقت فقط. أتمنى أن ننسى الحرب، هل لنا أن نتحدث مثل الناس الطبيعيين؟
حدقت مولي بوجهه ثم ابتسمت:
– أنتَ لا تعرفني، صحيح؟
– ما أعرفه أني رأيتك في المدينة. أنت جميلة ولطيفة، وكل ما أعرفه وأريده هو أن أتحدث معكِ قليلاً.
لم تفارق الابتسامة شفتي مولي، فجلست على كرسيها، وظل الملازم توندر واقفاً أمامها كطفل، وكان يبدو أخرقَ، وكررت:
–أنت لا تعرفني. الأمر بسيط، أنت تشعر بالوحدة.
لعق الملازم توندر شفتيه، وتحدث بحماسة:
– هذا هو الأمر، أنتِ تشعرين بي، كنتُ أعلم ذلك.
وبدأ يتكلم بسرعة وكأنه يهذي:
– أنا وحيد إلى درجة المرض، أنا وحيد في الهدوء، وفي الكراهية. أرجوكِ، لنتحدث قليلاً.
أمسكت مولي بأدوات الحياكة، ونظرت إلى الباب، ثم قالت:
– لديك خمس عشرة دقيقة فقط، اجلس أيها الملازم.
ثبّتت مولي نظرها على الباب، وسُمِع صوت صرير في البيت. شعر الملازم توندر بالتوتر، فسأل:
– أيوجَد أحد في المنزل؟
– لا، ولكن الثلج تكوم على السقف، وبدأ يضغط عليه. لقد خسرت رَجُلي، لم يعُد لدي رجل في البيت ليزيل الثلج من السقف.
قال الملازم توندر برقة:
– مَن فعل ذلك؟ هل كنا سبباً في خسارة رَجُلك؟
أومأت مولي برأسها، ونظرت بعيداً:
– نعم.
جلس الملازم توندر على الكرسي.
أنا آسف. أتمنى لو كنت أستطيع فعل شيء لكِ، سأزيل الثلج عن السقف.
– لا.
– لماذا ترفضين؟
– لأن الناس سيعتقدون أني تحالفتُ معكم؛ سيعتزلونني. لا أريد أن أُقصى.
– أستطيع تخيل ذلك. أنتم تكرهوننا، ولكني سأهتم بكِ إذا سمحتِ لي بذلك.
أدركت مولي أنها المسيطرة، فضيَّقت عينيها، وقالت:
– ولماذا تسألني؟ أنت المنتصر، ولا يحتاج رجالك إلى سؤال، إنكم تأخذون ما تريدونه.
– ليس هذا ما أريده.
ضحكت مولي، ولكنها كانت قاسية:

– أنت تريدني أن أحبك، أليس هذا ما تريده أيها الملازم؟

– نعم. فأنتِ جميلة جداً ودافئة، أوه، وشعرك لامع، لم أرَ هذه الطيبة على وجه امرأة منذ مدة طويلة.

– هل ترى شيئاً في عينيَّ؟

اقترب منها، وقال:

– أريد ذلك.

أسبلت عينيها:

– أنتَ تحبني أيُّها الملازم، وتريد أن يحبَّ كل منا الآخر.

– أريدكِ، أتمنى أن تبادليني الحب، وأرى ذلك في عينيك. منذ رأيتُكِ أول مرة في الشارع وقعتُ في حبكِ، وأصدرتُ أوامر بعدم التعرض لكِ، هل تعرَّض لكِ أحد ما؟

– شكراً لك، لا، لم يتحرش بي أحد.

اندفعت الكلمات من فمه.

– لقد كتبت لك قصيدة، هل ترغبين في قراءتها؟

قالت ساخرة:

– أهي طويلة؟ عليك أن تغادر بسرعة.

– لا، قصيدة قصيرة، بالأحرى جزء من قصيدتي.

وأدخل يده في جيبه، وأخرج ورقة مطوية، ثم سلمها الورقة، فاقتربت من المصباح، وارتدت نظارتها وقرأت:

"عيناك في سماواتهما العميقة الزرقاء

أتذكَّرهما في كل مكان

بحر من الأفكار الزرقاء

ينهمر على قلبي".[3]

طوت مولي الورقة، ووضعتها في حجرها:

– هل أنت مَن كتبها؟

– نعم.

قالت بنبرة مزاح:

– أكتَبْتَها من أجلي؟

ردَّ الملازم توندر متوتراً:

– نعم، لكِ.

ثبَّتت نظرتها عليه، وابتسمت قائلةً:

– لستَ أنت مَن كتبتَها أيها الملازم.

ابتسم كطفل اكتُشف كذبه.

– نعم.

– وهل تعرف كاتب القصيدة؟

– نعم، كتبها هاينريش؛[4] إنها جزء من قصيدة "بعينيك الزرقاوين". لطالما أحببتُ هذه القصيدة.

وضحك محرجاً، ثم ما لبثت موني أن ضحكت معه، ولكنه توقف فجأةً، وظهر في عينيه الأسى، وقال:
– لم أضحك هكذا منذ زمن طويل. أخبرونا أن الناس سيحبوننا، ويُعجبون بنا، ولكنْ لم يحدُث ذلك. إنهم يكرهوننا. أنتِ جميلة جداً، مثل ضحكتكِ.
– يبدو أنك بدأت تحبني أيها الملازم، عليك أن تغادر بسرعة.
– أريد أن نقع في الحب، الرجل بحاجة إلى ذلك، إننا نموت من دون الحب، يذبل الإنسان ويصبح صدره مثل رقائق يابسة، قابلاً للكسر. أشعر بالوحدة.
نهضت موني من الكرسي، وهي تنظر نحو الباب متوترةً، ثم اتجهت إلى الموقد، وعادت وقد تغيَّرت قسمات وجهها، وأصبحت قاسية ونظرتها غاضبة:
– أتريد أن تأخذني إلى الفراش أيها الملازم؟
– لم أقصد ذلك. لماذا تتحدثين معي بهذه الطريقة؟
ردَّت موني بجفاء، ومرارة في صوتها.
– أريد أن أجعلك تشمئز مني، لقد كنت متزوجة، ومات زوجي. أنا لست عذراء كما تتمنى.
– كلُّ ما أريده هو أن تعجبي بي.
– أعرف، وأنت رجل متحضر، وتعرف أن الحب يكون أكثر متعةً واكتمالاً حينما يكون متبادلاً.
– أرجوكِ، لا تكلميني بهذه الطريقة، أتوسل إليكِ.
ألقت موني نظرة سريعة على الباب، وقالت:
– نحن محتلون أيها الملازم، وأنتم تحرموننا الطعام. أنا جائعة، وسأحبك إن أطعمتني.
– لماذا تقولين ذلك، وتتحدثين معي بهذه الطريقة؟
– هل أثرت اشمئزازك أيها الملازم؟ ربما هذا ما أريده، قيمتي قطعتان من النقانق.
– لا تتحدثي معي بهذا الأسلوب، أرجوكِ.
– هكذا تُعامِلون الفتيات بعد الحرب يا ملازم. تختارون الفتاة التي تريدونها مقابل بيضة أو شريحة من الخبز. أتريد أن تحصل عليَّ مجاناً؟ هل الثمن مرتفع جداً؟
– أعتقد أنني خُدعت بكِ للحظة، أنتِ تكرهينني، لم أتوقع ذلك منكِ.
– لا، أنا لا أكرهك. أنا جائعة، وإضافة إلى ذلك أكرهك.
– سأُعطيكِ ما تحتاجين إليه، سأمنحكِ كل شيء، ولكن.
قاطعته موني محتدةً.
– سأسهل عليك الأمر، أنت لا تريد عاهرة، أهذا ما كنت تريد قوله؟
– لم أقصد ذلك ألبتَّة، لماذا تجعلين الأمر مملوءاً بالكراهية؟
ضحكت موني.
– يبدو أنك لم تجرب الجوع. قد تكون قطعتا نقانق من أغلى الأشياء في العالم في بعض الأحيان.
– أرجوكِ، لا تتحدثي بهذه الطريقة.
– ولماذا تريد إسكاتي؟ أليست هذه هي الحقيقة؟
– هذا ليس صحيحاً. من المستحيل أن تكون هذه الحقيقة.

نظرت إليه لحظةً، ثم خفضت نظراتها إلى حجرها، وقالت:

– نعم، ما تفوهت به ليس صحيحاً، وليس الحقيقة. أنا لا أكرهك. كلُّ ما هناك هو أني امرأة أشعر بالوحدة، والثلج كثيف وثقيل على سطح المنزل.

نهض الملازم **توندر** واقترب منها، ثم أمسك إحدى يديها، وأحاطها بكلتا يديه، وقال بهدوء:

– أتمنى ألا تكرهيني. أنا مجرد ملازم، ولم أطلب المجيء إلى هنا، ولا أريد أن تعامليني كعدو، أنا مجرد رجل، ولست فاتحاً أو منتصراً.

شبكت **مولي** أصابعها على يده، وردت بصوت خفيض:

– أعرف ذلك. إنني أشعر به.

– أليس لدينا الحق في شيء من الحياة في ظل كل هذا الموت؟

وضعت يدها الأخرى على خده، وقالت:

– نعم.

– سأعتني بكِ. لدينا بعض الحق في الحياة مع كل هذا القتل من حولنا.

سقطت يدها على كتفه، وفجأةً تصلب جسدها، واتسعت عيناها تنظران أمامها وكأنها ترى شيئاً. ترك يدها خائفاً، وسألها: –ما بكِ؟

كرر الملازم **توندر** سؤاله، وبدت **مولي** كأنها ممسوسة، وتكلمت بنبرة مخيفة كأنها تهذي:

– ألبستُه مثل طفل صغير في أول يوم له في المدرسة، كان يشعر بالخوف، أغلقت أزرار قميصه، أواسيه، لم يهدأ، لقد كان خائفاً.

– ماذا تقولين؟

بقيت **مولي** تحدق أمامها، وكأنها ترى شيئاً لا يراه وتصفه:

– لا أعرف لماذا سمحوا له بالعودة إلى المنزل، كان مرتبكاً، لا يعرف ماذا يحدث حوله، غادر ولم يقبّلني، كان خائفاً وشجاعاً جداً، مثل طفل صغير في أول يوم له في المدرسة.

نهض الملازم **توندر**:

أتتحدثين عن زوجك؟

– نعم، زوجي، ذهبت إلى العمدة **أوردن**، وكان عاجزاً. خرج من المنزل يمشي مترنحاً، وأنت مَن فعل ذلك، ثم أطلقت النار عليه. شعرتُ حينئذٍ بأن الأمر غريب أكثر من كونه بشعاً. كنت في حالة عدم تصديق لما يحدُث.

– أكان ذلك زوجك؟

– لم أصدق حينئذٍ ما حدث، ولكنني الآن وأنا أجلس وحيدة في منزلي الهادئ بدأت أصدق. الآن والثلج يتكاثف فوق السطح بدأت أصدق، قبل الفجر وأنا وحيدة في سرير نصف دافئ صدقت وعرفت الحقيقة.

وقف الملازم **توندر** أمامها، والحزن يظهر عليه، ثم قال:

– تصبحين على خير. أدعو الله أن يحفظك. أيمكنني العودة، وزيارتكِ مرة أخرى.

كانت **مولي** تنظر إلى الجدار، تنظر إلى الذكريات، وهي تقول:

– لا أعرف.

– سأعود.

– لا أعرف.

نظر إليها، ثم استدار وخرج، وبقيت **موللي** تحدق في الجدار.

– أن يحفظني الله؟

فُتح الباب. دخلت **آني**، وقد أبدت استياءَها:

– كان الباب مفتوحاً. لقد رأيت رجلاً يخرج من منزلكِ، أعتقد أنه جندي.

– **نعم، يا آني.**

– هل كان جندياً بالفعل؟

– **نعم يا آني.**

– وما الذي كان يفعله عندك؟

– جاء ليحبني.

– **يا سيدة موللي**، ما الذي تفعلينه؟ هل انضممتِ إليهم؟ لا أظن أنكِ معهم مثل **كوريل.**

– لستُ معهم **يا آني.**

– إن عاد والعمدة هنا، فستتحملين مسؤولية ذلك. سيكون خطأكِ.

– لن يعود، لن أسمح له بالعودة إلى هنا.

– هل أسمح لهم بالدخول؟ أأنتِ متأكدة أن المكان آمن؟

– لا تخشي شيئاً. أين هم الآن؟

– مختبئون خلف السياج.

– اسمحي لهم بالدخول.

عند خروج **آني** نهضت **موللي** من مكانها، ومررت يدها على شعرها، وهزت رأسها، رغبةً في أن تستعيد حيويتها. عَلا صوت وشوشة في الممر. ثم دخل شابان أشقران، يرتديان معطفَين بحريَّين، وسترتَين داكنتَين، وقبعتَين من الصوف، أسمرا البشرة من أثر الرياح. ويبدو أنهما قويان، توأمان، لقد عرفتهما، إنهما الصيادان **ويل وتوم أندرسن.**

– مساء الخير **موللي**، هل عرفتِ ما الذي سيحدُث؟

– أخبرتني **آني**، إنها ليلة سيئة للسفر.

قال **توم:**

بل أعتقد أنها جيدة للسفر، فلو كان الجو هادئاً، لرأتنا الطائرات. ألا تعرفين ما الذي يريده العمدة؟

– لا أعرف. لقد وصل إليَّ خبر أخيك. أنا آسفة على ما حدث له.

صمت الشابان وقد بَدَا الحزن عليهما، وقال **توم:**

– هذا ما حدث، وإنه أفضل **مما** حدث لغيرنا.

قالت **موللي:**

– أعرف ذلك. نعم أعرفه.

دخلت **آني** وهمست:

– إنهم هنا.

ثم دخل خلفها العمدة **أوردن**، وخلفه الدكتور **وينتر**. وخلع الجميع معاطفهم وقبعاتهم، ووضعوها على الأريكة. اقترب العمدة أوردن من **موللي**، وقبَّل جبهتها:

– مساء الخير عزيزتي.

التفت بعدها إلى **آني**، وقال لها:

– قفي في الممر، وراقبي الشارع. إن كان هنالك خطر ما، فاضربي ضربتين. وإن مرت الدورية أمام المنزل، فاضربي ضربة واحدة. بإمكانك ترك الباب الخارجي مفتوحاً قليلاً لتري إن اقترب أحد من الباب.

ذهبت **آني** إلى الممر بعد أن أغلقت الباب خلفها. وقف الدكتور **وينتر** عند الموقد يدفّئ يديه، وقال:

– لقد سمعنا أنكما ستغادران الليلة.

قال **توم**:

– يجب علينا أن نغادر.

أومأ العمدة **أوردن** برأسه، ثم قال:

– نعلم ذلك، ولكننا سمعنا أنكما ستأخذان السيد **كوريل** معكما.

ضحك **توم** بمرارة:

– اعتقدنا أن هذا ما يجب فعله، وسنأخذ قاربه أيضاً. لا يمكننا ترك **كوريل** في البلدة، لا نريد للناس أن يروه يمشي في الشوارع.

قال العمدة **أوردن** بنبرة حزينة:

– وأنا أتمنى ذلك، أود أن يغادر، ولكن كل ما في الأمر أني خائف عليكما. يقلقني أن تأخذاه معكما.

ردَّد **ويل** ما قاله شقيقه:

– لا يمكننا ترك **كوريل** في البلدة. ليس من الجيد رؤيته في الشوارع، وليس من الجيد أن يراه الناس.

سأل الدكتور **وينتر**:

– هل باستطاعتكما اختطافه؟

– أوه، إنه حذر، ولكنه يعود إلى منزله وحده في الساعة الثانية عشرة، سنكمُن له خلف الجدار. وأعتقد أننا سنتمكن من تقييده واقتياده عبر حديقة المنزل، إلى الرصيف الصغير الذي يقبع فيه قارب. كنا اليوم على متن القارب نجهزه للإبحار.

قال العمدة **أوردن**:

– أتمنى ألا تضطرا إلى ذلك. فقد يشكل ذلك خطراً عليكما. أخشى أن يصرخ ويقاوم، وتنتبه إحدى الدوريات.

قال **توم**:

لن يستطيع فعل شيء من ذلك، ومن الأفضل أن يأتي معنا بدل أن يمسك به سكان المدينة بعد ذلك ويقتلوه.

قالت **مولي** وقد بدأت في الحياكة:

– وهل ستلقونه في البحر؟

احمرَّ وجه **ويل**:

– سنأخذه إلى البحر. (لتفت إلى العمدة) أردتَ رؤيتنا سيدي.

– نعم، أريد التحدث معكما، كنت أتناقش مع الدكتور **وينتر** بشأن العدالة والظلم والغزو. شعبنا مُحتل، ولكنه لم يستسلم إلى الآن.

علا صوت طَرْقتين على الباب، وعمَّ صمت. توقفت **مولي** عن الحياكة، يد العمدة بقيت ممدودة في الهواء. توقف **توم** عن حك أذنه، وبقيت نظراتهم ثابتة نحو الباب. تناهت إليهم أحاديث أفراد الدورية، وخشخشة أحذيتهم على الثلج، خفت الصوت شيئاً فشيئاً. ابتعدوا، فشعروا بالراحة، قال العمدة **أوردن**:

– لا بدَّ أن آني تشعر بالبرد. وأخذ معطفه وحرج من الغرفة، وسلَّمه لها:

– ضعيه حول كتفيك آني.

وأغلق الباب، ثم قال:

– لا أعرف ما الذي كنتُ سأفعله من دونها. إنها تذهب إلى كل مكان، وتسمع وترى كل شيء.

قال **توم**:

– يجب أن تغادر سيدي، سنتأخر.

قال الدكتور **وينتر**:

– أتمنى لو تنسيان أمر السيد **كوريل**.

– لا نستطيع، لن نتركه.

نظر **توم** إلى العمدة **أوردن** وكأنه يطلب رأيه. فقال العمدة:

– ببساطة، هذه بلدة صغيرة، العدالة والظلم فيها يُقاسان بأمور صغيرة، ثأر الخونة. لقد قتلوا أخاك، و**أليكس مورين**. الناس يغلون، ولكن لا يعرفون كيف يقاتلون، ولا يملكون طريقة للرد، يُنظر إلى كل ذلك من خلال مفاهيم صغيرة، الناس ضد الناس، ولا ينظرون إلى ذلك من خلال الفكرة ضد الفكرة.

قال الدكتور **وينتر**:

– أمر مضحك وغريب أن يفكر طبيب في الدمار، ولكني أعتقد أن كل الشعوب المعتدى عليها ترغب في المقاومة، ونحن لا نملك إلا أجسادنا وأرواحنا، لا نملك الأسلحة، ومعنويات الرجل بلا سلاح منخفضة.

تساءل **ويل أندرسن**:

– ما الذي تعنيه بهذا يا سيدي؟ ماذا تريد منا؟

قال العمدة **أوردن**:

– نريد أن نقاتلهم، ولكننا لا نستطيع، إنهم يستخدمون سلاح الجوع في مواجهة الناس، وهذا يضعف شعبنا، وأنتما ستبحران إلى إنجلترا، قد لا يستمع إليكما أحد. ولكن أوصلا إليهم رجاءنا من بلدتنا الصغيرة أن يزودونا بالأسلحة.

سأله **توم**:

– أتريدون أن تحصلوا على بنادق؟

طَرْقتان على الباب، توقف الجميع، ووصل إليهم صوت أفراد الدورية، وكان صوت خطواتهم أسرع وأثقل وطئاً. كانوا يركضون، تحرك **ويل** إلى الباب، وكان الركض قريباً من المنزل. أوامر تتالى بصوت خفيض، ثم ابتعدت الدورية، وعاد الطَّرْق، قالت **مولي**:

– لا بد أنهم يبحثون عن أحد، أتساءل مَن سيكون هذه المرة.

قال **توم** قلقاً:

– يجب أن نغادر بسرعة يا سيدي، هل تريد مسدسات يا سيدي؟ أنطلب منهم أن يوفروا لكم المسدسات؟

– لا، أطلعهم على الوضع هنا، وأخبرهم أننا مراقبون، وأن محاولاتنا تُجابَه بانتقام شديد. أتساءل لو كان بوسعنا الحصول على أسلحة خفيفة تسهل تخبئتها؛ مثل المتفجرات والديناميت لتفجير السكك الحديدية، أو قنابل يدوية. لو يرسلون إلينا سماً.هذه حرب غير شريفة، حرب خيانة وقتل. سنستخدم الأساليب التي استُخدِمت ضدنا. اطلب منهم أن تُلقي القاذفات البريطانية قنابلها على المصانع، وتسقط لنا قنابل صغيرة لنستخدمها ونخفيها تحت خطوط السكك الحديدية، وتحت الدبابات، وعندئذٍ سنكون مسلحين سراً. ولن يعرف المحتل أبداً مَن المسلح منّا. دع القاذفات تُلقي الأسلحة

البسيطة إلينا، وسنعرف كيف نستخدمها.

قال الدكتور وينتر:

– ولن يعرفوا أبداً أين سيتم ضربهم، ولن يعرف الجنود والدوريات أيّاً منا المسلح.

مسح توم جبهته، وقال:

– إذا نجحنا في الوصول إلى إنجلترا، فسنخبرهم بذلك سيدي، ولكنني سمعت أن هناك مسؤولين في إنجلترا يرفضون امتلاك عامة الناس أسلحة، ويعارضون ذلك.

نظر العمدة أوردن إليه:

– آه، لم أفكر في هذا. حسناً، لا يمكننا إلا أن نسأل وننتظر. إن كان هنالك أناس مثل هؤلاء يحكمون إنجلترا وأمريكا، فإن العالم سيضيع. على كل حال، أوصِل إليهم اقتراحنا، وأتمنى أن يصل إليهم صوتنا، وينفذوا ما طلبناه. يجب أن نحصل على المساعدة. وإذا حصلنا على المساعدة، فسنتمكن من مساعدة أنفسنا.

قال الدكتور وينتر:

– حتى إذا أعطونا الديناميت، فسنخبئه، سندفنه في باطن الأرض لنستخدمه عند الحاجة، وحينئذٍ لن يرتاح الغزاة أبداً، سنفجّر إمداداتهم.

طغى جو الحماسة على الغرفة، وتحدثت مولي بنبرة عنيفة:

– حينئذٍ سنتمكن من محاربتهم، أن نزعجهم في فترة راحتهم، ونقضّ مضاجعهم، ونتلف أعصابهم، ونسلب منهم طمأنينتهم.

سأل ويل العمدة أوردن:

– هل هذا كل شيء يا سيدي؟

ردَّ العمدة وهو يومئ برأسه:

– نعم، هذا هو جوهر الأمر.

– وإذا لم يستمعوا إلينا؟

– عليك أن تحاول، حاول أن تبحر هذه الليلة.

– هل هذا كل شيء سيدي؟

فُتح الباب، وتسللت آني بهدوء، وقال العمدة أوردن:

– هذا كل شيء. إن كنتم ستغادرون الآن، فسأرسل آني لتستطلع الطريق، وتتحقق من خلوه.

حرك عينيه نحو الباب، وشاهد آني تقف في الداخل.

قالت آني:

– هناك جندي قادم نحونا. يبدو أنه الجندي الذي كان هنا قبل وقت قليل مع مولي.

اتجهت الأنظار إلى مولي، وقالت آني لتطمئنهم:

– لقد أغلقت الباب.

سألت مولي:

– ما الذي يريده؟ لماذا عاد؟

سمعوا طَرْقاً ضعيفاً على الباب الخارجي، فاقترب العمدة أوردن من مولي، وقال لها:

– ما الذي يحدث يا **مولي**؟ هل أنتِ في ورطة؟

– لا، يمكنكم التسلل من الباب الخلفي، هيا بسرعة.

استمر الطَّرْق على الباب الأمامي، الملازم **توندر** ينادي **مولي** بهدوء. فتحت باب المطبخ، وطلبت منهم الخروج. وقف العمدة أمامها يكرر سؤاله ويستفسر إن كانت قد فعلَتْ شيئاً. وقالت آني ببرود:

– إنه الجندي نفسه الذي كان هنا قبل قليل.

قالت **مولي**:

– نعم، كان هناك جندي في منزلي.

سألها العمدة:

– وما الذي يريده؟

– رغب في ممارسة الحب معي.

قال العمدة:

– ولكنه لم يفعل شيئاً، صحيح؟

– لم يتمكن من فعل شيء. اذهبوا الآن، وسأهتم بالأمر.

قال العمدة **أوردن**:

– إن كنتِ تواجهين مشكلة، فسنساعدكِ.

دفعتهم إلى الخارج، وقالت:

– لا أحد يستطيع مساعدتي في حل المشكلة التي أواجهها، غادروا بسرعة.

بقيت آني في مكانها، ونظرت إلى **مولي**:

– ماذا يريد هذا الجندي منكِ؟

– لا أعرف.

– هل ستخبرينه عن شيء؟

– لا. لا!، لا يا آني، لستُ كما تظنين.

عبست آني:

– من الأفضل ألا تخبريه بشيء.

خرجت آني، وأغلقت الباب وراءها. واستمر النقر على الباب الأمامي، وصوت رجل يمر من الباب. خطَتْ **مولي** إلى المصباح في وسط الغرفة. تشعر بثقل في نفسها وجسدها. نظرت إلى المصباح، نظرت إلى الطاولة، رأت المقص الكبير، أمسكته من شفرتيه، انزلقت الشفرات بين أصابعها، ثم أحكمت قبضتها عليه كأنها تمسك بسكين. كانت هنالك نظرة ذعر في عينيها، نظرت إلى المصباح، وغمر الضوء وجهها، فخبأت المقص داخل فستانها. استمر الطَّرْق، سمعت صوته يناديها، أطفأت الضوء، فغمر الظلام الغرفة باستثناء بقعة حمراء تشع من الموقد. واتجهت نحو الباب الخارجي، وبصوت حلو ومتوتر قالت:

– أنا قادمة أيها الملازم، أنا قادمة.

الفصل السابع

ليلة مظلمة صافية، قمر أبيض أصاب نصفه الذبول يحاول نشر ضيائه. رياح جافة تغني فوق الثلوج، تهُبّ بثبات وانتظام من نقطة باردة في القطب الشمالي. وعلى الأرض كانت الثلوج عميقة وجافة مثل الرمال، المنازل تظهر من تجاويف بين الثلوج المتراكمة، والنوافذ مظلمة ومغلقة لمقاومة البرد، ويرى من المداخن تصاعد القليل من الأدخنة. في البلدة كانت الأرصفة متجمدة، والشوارع هادئة إلا عند مرور أفراد الدورية. كانوا بائسين ينتفضون من البرد، والمنازل مظلمة مثل الليل الذي يحيطها، بقي فيها بعض الدفء ينتظر الصباح. وبجوار مدخل المنجم وقف حراس يراقبون السماء وآلاتهم مصوَّبة نحوها، يوجهون أجهزة الاستماع إلى الأعلى. كانت الليلة صافية تُغري بالقصف، تكون الأرض مرئية من السماء ولو أن القمر لا يلقي إلا القليل من الضوء. وفي مثل هذه الليالي تنهال عليهم القنابل المجنّحة تهدر وتزمجر. تنفجر فتنتشر شظاياها.

في أحد أطراف القرية، بين البيوت الصغيرة، كلب يشكو البرد والوحدة. رفع وجهه إلى الأعلى، وكان يمثل وصفاً دقيقاً لحالة العالم، ينبح بأنين وألم. سمع رجال الدورية الستة الذين كانوا يمشطون الشارع نباح الكلب، وقال أحدهم:

– يبدو أن حالته تزداد سوءاً كل ليلة. يجب أن نطلق النار عليه.

رد عليه أحد أفراد الدورية:

– لماذا نقتله؟ دعه يعوي؛ يعجبني صوته، يذكرني بكلب أصفر كنت أملكه، لم أستطع أن أسكته قطُّ، ثم أخذوا كلبي عندما بدؤوا بقتل الكلاب.

قال العريف:

– لا يمكننا أن نترك الكلاب تأكل طعامنا الذي نحتاج إليه.

– أوه، لا أشتكي من قتل الكلاب، كان الأمر ضرورياً، والقادة يعلمون أكثر منا، ولا أستطيع أن أخطط وأفكر مثلما يفعلون. ولكن ما يضحكني هو أن بعض الناس هنا يربّون الكلاب، مع أنهم لا يملكون الطعام بالقدر الذي لدينا. انظروا إليهم كم هم نحيفون، هم وكلابهم.

قال العريف:

– حمقى. لذلك خسروا الحرب بسرعة كبيرة، إنهم غير قادرين على التخطيط مثلنا.

– أتساءل: هل سيكون لدينا كلاب بعد انتهاء الحرب.

– بإمكاننا الحصول عندئذٍ على الكلاب من أمريكا أو أي مكان في العالم. ونبدأ بتربية السلالات مرة أخرى، أتعرفون أي نوع من الكلاب يوجد في أمريكا؟

قال العريف:

– لا أعرف، ربما تكون مجنونة مثل كل شيء عندهم، وقد تكون كلابهم ليست جيدة. من الأفضل ألا نفكر فيها إلا إذا كنا سنستخدمها في عمل الشرطة.

قال الجندي:

– ربما تكون كذلك. وقد سمعت أن القائد يكره الكلاب. لأنها تثير لديه العطاس والحكة.

قال العريف:

– أنت تسمع أشياء كثيرة.

ثم مد يديه طالباً منهم الوقوف، وأن يصيخوا السمع. سمعوا أصوات طائرات تقترب، فقال:

– إنهم قادمون. حسناً، لا توجد أضواء حولنا. أكملنا أسبوعين منذ آخر هجوم.

قال الجندي:

– اثني عشر يوماً.

سمع حراس المنجم صوت الطائرات، قال الرقيب:

– إنها تحلق على ارتفاع عالٍ.

رفع النقيب **لوفت** رأسه مُرجعاً إياه إلى الخلف ليتمكن من الرؤية من حافة الخوذة التي تغطي النظر. وقال:

– أعتقد أنها تحلق على ارتفاع عشرين ألف قدم، وربما أعلى من ذلك.

قال الرقيب:

– أظن أنها لا تتجاوز ثلاث طائرات، هل أبلغ المدفعية؟

– لِنتيقَّنْ أولاً أنها متأهبة للقصف، ثم أعلِم العقيد **لانسر**. أو لا، لا تبلغه، فربما تقصد مكاناً آخر. إنها فوقنا تقريباً، ولم تبدأ القصف بعد.

قال الرقيب:

– يبدو أنها تلتف حول المكان، أعتقد أن عددها طائرتان فقط.

تقلب الناس على أسرَّتهم، يسمعون أصوات الطائرات، وفي قصر العمدة **أوردن** استيقظ العقيد **لانسر** على صوت الهدير الخافت. فانقلب على ظهره ينظر إلى السقف المظلم. حبس أنفاسه ليسمع بشكل أفضل. علا صوت نبض قلبه، حتى إنه لم يعُد يسمع كما كان عندما يتنفس. ناوش صوت الطائرات حلم العمدة، فتحرك وهمَس وهو نائم. في السماء تحلق القاذفتان، لونهما مثل الطين. خفَّت سرعتهما، وأسقطتا من بطنهما مئات الأشياء الصغيرة، وعلى ارتفاع بضع أقدام من الأرض انفتحت مظلات صغيرة، واستقرت بهدوءٍ على الأرض، ارتفعت الطائرتان وعادتا لتُسقطا المزيد، ثم عادتا في الاتجاه الذي جاءتا منه.

تطفو المظلات الصغيرة مثل بذور الحسك، ووزَّعتها الرياح كما توزع البذور. تهبط ببطء شديد، تلمس الأرض برفق، إلى درجة أن بعض حزم الديناميت التي كانت بطول عشر بوصات تقف منتصبة على الثلوج. وتُطوى المظلات الصغيرة بجوارها، بدَتْ سوداء في وسط الثلج. هبطت في الحقول البيضاء وبين الأشجار، تدلَّت من بعض الأغصان، وأخرى هبطت فوق أسطح المنازل، وبعضها في أفنية المنازل الأمامية. ووقفت إحداها على تاج رأس تمثال القديس ألبرت في قلب البلدة، هبطت مظلة صغيرة أمام أفراد الدورية، فقال الرقيب:

– احذروا، ربما تكون قنبلة موقوتة.

قال أحد الجنود:

– إنها ليست كبيرة بما يكفي.

سلَّط الرقيب ضوء مصباحه على ذلك الجسم، مظلة صغيرة لونها أزرق فاتح لا يزيد حجمها على منديل، ومربوطة بها علبة ملفوفة بورق أزرق. طلب الرقيب من رفاقه ألا يقتربوا منها قائلاً:

– لا أحد يلمسها. **هاري**، اركض إلى المنجم، ونادِ النقيب. سنبقى هنا لمراقبة هذا الشيء اللعين.

حلَّ الفجر، وخرج الناس من منازلهم في الريف، وشاهدوا البقع الزرقاء على الثلج. التقطوها، وفتحوا الورقة، قرؤوا ما طُبع عليها، فأدركوا أنها هدية هبطت عليهم السماء. وكل مَن وجد واحدة أخفاها تحت معطفه، وبحث عن مكان يخبئها فيه. وعلِم الأطفال بذلك، فبدؤوا يمشطون المنطقة بحثاً عن الديناميت، ويخفون الأنابيب في ملابسهم، ويسلمونها إلى أهلهم. شعر عدد قليل من الأشخاص بالخوف، فسلموها للجيش، وهرع الجنود يبحثون عن الديناميت، ولكنهم لم يكونوا جيدين مثل الأطفال.

في غرفة الاستقبال بقصر العمدة **أوردن**، تقبع طاولة الطعام التي لم يتغير مكانها، منذ اليوم الذي أطلق فيه النار على **أليكس**

مورين، وأوراق مبعثرة على سطحها. لم تعُد الغرفة جميلة كما كانت في السابق، تبدو فارغة، وكأنها مكتب للعمل. خلت الجدران من اللوحات، وخلت الغرفة من الكراسي. دقت الساعة عند التاسعة، يوم مظلم ملبَّد بالغيوم، جلَب فجره غيوماً ثلجية داكنة ثقيلة. خرجت آني من غرفة العمدة، ودخلت غرفة الرسم، وألقت نظرة على الأوراق التي كانت على الطاولة، فلمحها النقيب **لوفت** ووقف عند الباب، ثم سألها بنبرة صارمة:

– ما الذي تفعلينه في الغرفة؟

– نعم سيدي.

– ماذا تفعلين هنا؟

– أردت أن أرتب الغرفة سيدي.

– اتركي كل شيء في مكانه، واخرجي من الغرفة الآن.

– حاضر يا سيدي.

خرجت آني من الغرفة، فاستدار النقيب **لوفت** نحو أحد الجنود، وطلب منه إدخال ما جلبه. هرع الجندي خلفه وبندقيته معلقة على كتفه بحزام، يحمل عدداً من الطرود الزرقاء، ومن أطرافها تتدلى خيوط صغيرة، وقِطع قماشية زرقاء. طلب منه النقيب **لوفت** أن يضعها على الطاولة. فوضعها الجندي بحذر، قال النقيب:

– اصعد إلى الطابق العلوي، وأبلغ العقيد **لانسر** أني هنا مع الأشياء.

أدار الجندي ظهره، وغادر الغرفة، فعاين النقيب **لوفت** أحد الطرود، وبان الاستياء على ملامحه. أمسك بالمظلة وألقاها، ففتحت، وسقط الطرد على الأرض بهدوء، وبدأ يتفحصها. دخل العقيد **لانسر** الغرفة مسرعاً، يتبعه الرائد **هنتر** الذي يحمل ورقة صفراء بيده. وجلس العقيد على رأس الطاولة، ينظر إلى الأنابيب أمامه، ثم أمسك بواحد، وطلب من الرائد **هنتر** الجلوس.

– هل فحصت هذه الأشياء؟

جلس الرائد **هنتر**، وحدق في الورقة التي في يده، وقال:

– لم أفحصها بدقة. على السكة الحديدية ثلاث نقاط توقف، تقع ضمن عشرة أميال.

– ألقِ عليها نظرة، أنتظر رأيك.

أمسك الرائد **هنتر** أنبوباً، وخلع غلافه، فوجد فيه عبوة صغيرة، ثم قطع الأنبوب بسكين. وكان النقيب **لوفت** يختلس النظر من فوق كتفه. شم الرائد **هنتر** الشق، وفرك أصابعه، وقال:

– يا للسخافة؛ إنه ديناميت تجاري. لا أعرف نسبة النيتروجليسرين فيه حتى أُجرّبه.

ثم نظر إلى العقيد **لانسر**:

– يتكون الأنبوب من غطاء عادي للديناميت، وفلومينات الزئبق، وفتيل مدة انفجاره دقيقة كما أعتقد.

وألقى الأنبوب على الطاولة.

– إنه رخيص، وبسيط جداً.

نظر العقيد **لانسر** إلى النقيب **لوفت**:

– هل تعرف عدد الأنابيب التي أُسقِطت؟

– لا أعرف يا سيدي العدد على وجه الدقة، لكننا وجدنا خمسين أنبوباً، وتسعين مظلة. فالناس يتركون المظلات ويأخذون الأنابيب. ويحتمل أن يكون هناك الكثير منها، ولم نعثر عليها.

لوَّح العقيد **لانسر** بيده، وقال:

– لا يهمني حقاً، يمكنهم إسقاط ما يريدون. لا يمكننا إيقاف ذلك، ولا استخدامه ضدهم. فلم تهبط قواتهم على الأرض.
زعق النقيب **لوفت** غاضباً:
– يمكننا محوهم عن وجه الأرض.
كان الرائد **هنتر** ينزع الغطاء النحاسي من إحدى أصابع الديناميت. فقال العقيد **لانسر**:
– يمكننا فعل ذلك.
ثم التفت إلى الرائد **هنتر** وهو يشير إلى إحدى أصابع الديناميت، وسأله:
– هل عاينتَ هذا الغلاف **هنتر**؟
– ليس بعدُ، سيدي. لم يكن لدي وقت لذلك.
قال العقيد **لانسر**:
– إنه شيء شيطاني. الغلاف أزرق اللون تسهل رؤيته. افتح الغلاف الخارجي، وستجد قطعة من الشوكولاتة. سيبحث الجميع عنها، وأراهن أن جنودنا الآن يسرقونها. وسيبحث عنها الأطفال مثلما يبحثون عن بيض عيد الفصح.
دخل جندي، ووضع ورقة صفراء أمام العقيد **لانسر** ثم تراجع. ألقى العقيد نظرة عليها، وضحك ساخراً:
– إليك شيئاً يا **هنتر**، هناك انفجاران آخران في خطك.
رفع الرائد **هنتر** نظره عن الغطاء النحاسي الذي كان يفحصه، وسأل:
– ما مدى انتشار الإسقاط الذي قامت به الطائرات؟ هل أسقطتها في أماكن محددة، أم في كل مكان؟
شعر العقيد **لانسر** بالارتباك:
– هناك أمر غريب. تحدثتُ مع العاصمة، وأخبرني المسؤولون أن هذا هو المكان الوحيد الذي أسقطوها فيه.
سأل الرائد **هنتر**:
– وما السبب في اعتقادك؟
– من الصعب التكهُّن، ولكني أعتقد أنهم اختاروا هذا المكان للتجربة. إذا نجحت هنا، فسيعمممونها، وإذا فشلت فلن يزعجوا أنفسهم.
– وماذا ستفعل؟
– الأمر الذي وصل إليَّ من العاصمة، هو مواجهة الأمر بقسوة وقوة. لكيلا يتمَّ الإسقاط في أي مكان آخر.
بانت نبرة الحزن والانكسار في صوت الرائد **هنتر**:
– كيف سأصلح خمسة أعطال في السكة الحديدية؟ ليست لدي قضبان كافية لإصلاح الأضرار.
قال العقيد **لانسر**:
– أعتقد أننا سنضطر إلى اقتلاع بعض الحواجز الجانبية القديمة. إنها فكرة جيدة، وبمنزلة تأسيس لطريق جيدة.
قال الرائد **هنتر**:
– ستكون هذه طريقاً سيئة. على أية حال، سيساعد على إنشاء طريق مبدئية.
ألقى الرائد **هنتر** الأنبوب في الصندوق، وتدخل النقيب **لوفت**:
– يجب أن نوقِف الأمر فوراً، ونواجهه بكل قوة. سنقوم باعتقال ومعاقبة أي شخص يلتقط هذه العبوات قبل أن يتمكنوا من استخدامها ضدنا. يجب أن نبدأ العمل حتى لا يعتقد أهالي البلدة أننا ضعفاء.
ابتسم العقيد **لانسر**:

لا تشغل بالك أيها النقيب. دعنا نقيّم الأمر، ثم نفكر في الحلول.

مدَّ العقيد **لانسر** يده إلى الصندوق، وأخذ قطعة وفكَّ غلافها، ثم تناول الشوكولاتة، وقال:

– إنه أمر شيطاني، الشوكولاتة لذيذة، لم أستطِع مقاومتها، وكأنها جائزة لمن يلتقطها.

ثم التقط الديناميت، وعاد يسأل الرائد **هنتر** عنه.

– سبق أن قلتُ لك إنه رخيص جداً، ولكنه فعال للأعمال الصغيرة. إصبع ديناميت بغطاء وفتيل، يسمح بدقيقة قبل الانفجار. إنه جيد إذا عرفت كيفية استخدامه.

عاين العقيد **لانسر** الطباعة الموجودة على الغلاف من الداخل:

– هل قرأت هذا أيها الرائد؟

– ألقيت عليها نظرة.

– حسناً، لقد قرأت ما جاء في الورقة، وأريد منك أن تستمع إليه بعناية. "إلى الشعب الذي لم يُهزم، أخفِ هذا، لا تكشف نفسك، ستحتاج إليه، إنه هدية من أصدقائك لك، ومنك إلى مَن احتل بلادك، لا تحاول القيام بأشياء كبيرة به".

تخطى العقيد لانسر بعض السطور، ثم أكمل:

"السكك الحديدية في الريف"، "العمل الليلي"، "وسائل النقل"، "التعليمات: السكك الحديدية: ضع الأنبوب تحت السكة الحديدية بقرب المفصل، واربطه بإحكام، غطّه بالطين أو الثلج حتى يثبت، ثم أشعل الفتيل، وعندئذٍ ستكون لديك ستون ثانية قبل أن ينفجر".

وعندما انتهى العقيد **لانسر** من قراءة بعض ما جاء في الورقة، نظر إلى الرائد **هنتر**. فقال الأخير:

– بهذه الطريقة سيكون الديناميت فعالاً.

عاد العقيد **لانسر** إلى الورقة: "الجسور: أضعفها، ولا تفكر في تدميرها"، "أعمدة النقل"، "قنوات الصرف"، "الشاحنات".

وضع العقيد **لانسر** المنشور الأزرق على الأرض، وقال:

– حسناً، هذا هو الأمر.

صرخ النقيب **لوفت** غاضباً:

– يجب أن نفعل شيئاً. لا بد أن تكون هناك طريقة للسيطرة على الوضع، ماذا قالت القيادة بشأن ذلك؟

عبَس العقيد **لانسر**، وأصابعه تداعب أحد الأنابيب:

– بإمكاني أن أخبرك بأوامر القيادة قبل أن تصل إلينا. "أعدوا فخاخاً لهم، وسمموا الشوكولاتة". **هنتر**، أنا رجل طيب ومخلص، وعندما أسمع الأفكار الذكية من مقر القيادة، أتمنى لو كنتُ مدنياً ومقعداً. يعتقدون أنهم يتعاملون مع أشخاص أغبياء. لا أقول إن هذا مقياسٌ لذكائهم، ولكنْ أليس الأمر كذلك؟

ابتسم الرائد **هنتر**:

– أتعتقد أنهم ليسوا بأغبياء؟

احتد العقيد **لانسر**:

– لا، ولكنْ ماذا سيحدث؟ سيفجر أحدهم نفسه في الكمائن التي نقيمها قبل القبض عليه، وسيأكل أحد الأطفال الشوكولاتة، ويموت متسمماً. وعندما يعرفون أننا وضعنا ديناميتاً مفخخاً مشابهاً لما أُلقي عليهم سيحركونه بالعصي قبل ذلك، وسيختبرون الشوكولاتة على القطط. أيها الرائد إن الناس أذكياء، وسيستطيعون التعامل مع خططنا، ولن تنطلي عليهم حيلنا والفخاخ الغبية بعد أن يكتشفوا ما فعلناه.

تنحنح النقيب **لوفت:**

– سيدي هذا خطاب هزيمة، يجب أن نفعل شيئاً ما. باعتقادك، ما الذي جعلهم يسقطونها هنا فقط سيدي؟

قال العقيد **لانسر:**

– لسببين، إمَّا أنه جرى اختيار هذه البلدة عشوائياً، وإمَّا أن هناك تواصلاً بين الناس هنا والخارج. وقد وصلت إليَّ أخبار مفادها أن بعض الشبان قد تمكنوا من الهرب.

تمتم النقيب **لوفت** بحزن:

– سيدي، يجب أن نفعل شيئاً.

استدار العقيد **لانسر** نحو النقيب **لوفت**، وسخر منه:

– سأوصي بإلحاقك بالأركان العامة، تريد أن تبدأ العمل قبل أن تعرف المشكلة. لقد تغيرت الحروب، وطُرق إدارة الاحتلال. في الماضي كنا نستطيع نزع سلاح الناس وإبقاءهم في جهل. أما الآن، فيستمعون إلى الراديو، ولا يمكننا إيقافهم أو العثور على راديوهاتهم.

أطلَّ جندي من الباب، وقال:

– سيدي، السيد **كوريل** يرغب بمقابلتك.

– دعه ينتظر.

أكمل حديثه مع النقيب **لوفت:**

– إنهم يقرؤون المنشورات، الأسلحة تُسقط لهم من السماء، والآن الديناميت، وبعد ذلك القنابل اليدوية، ثم السم.

قال النقيب **لوفت** بقلق:

– لم يُلقوا السم بعد يا سيدي.

– ولكنهم قد يفعلون، ولك أن تتخيل معنويات رجالنا حينئذٍ. تخيل أن يملك الناس سِهاماً صغيرة سخيفة، ترميها على الهدف بالنفخ، وتكون رؤوسها مغرقة بالسم. أسلحة صغيرة تافهة صامتة مميتة، تخترق الزي الرسمي من دون صوت. وماذا لو عرف رجالنا أن الزرنيخ منتشر، هل سيشربون أو يأكلون بطمأنينة؟

قال الرائد **هنتر** ساخراً:

– هل تخطط من أجل العدو أيها العقيد؟

– لا، ولكني أحاول أن أتوقع ما سيحدث.

قال النقيب **لوفت:**

– سيدي، نحن نجلس هنا ونبحث الأمر، في حين أننا يجب أن نكون في الميدان، ونبحث عن الديناميت. ويجب أن نفكك التنظيمات، إن كان الناس قد بدؤوا يعملون. علينا العثور على كل ذلك، والقضاء عليه.

قال العقيد **لانسر:**

– يجب علينا القضاء على الأمر بشراسة وقوة. سأوزع المهام، واحدة للنقيب **لوفت**، وأخرى للملازم **براكل**. أتمنى لو كان لدي المزيد من الضباط الصغار لأتمكن من العمل جيداً، مقتل الملازم **توندر** أضعفنا. لماذا لم يترك النساء وشأنهنَّ؟

قال النقيب **لوفت:**

– أعتذر يا سيدي، ولكني لا أحب الطريقة التي يتصرف بها الملازم **براكل**.

– وما الذي يفعله؟

– لا يفعل شيئاً، تلك هي المشكلة، إنه كئيب ومتوتر دائماً.

– أعرف ذلك. لقد تحدثت كثيراً عن الأمر، وشغلت الكثير من وقتي في ذلك. ربما كنت سأصبح لواءً لو لم أهتم بالحديث عنه إلى ذلك القدر. المشكلة أننا درَّبنا شبابنا على النصر، وهم رائعون في ذلك. لكنهم لا يعرفون كيفية التصرف أثناء الهزيمة، أخبرناهم أنهم أكثر ذكاء وشجاعة من الشباب الآخرين، وهذا ما سبَّب لهم صدمة، عندما عرفوا أن هنالك مَن هو أكثر ذكاءً وشجاعة منهم.

قال النقيب **لوفت** بحنق:

– نحن لم نهزم، ماذا تقصد بالهزيمة؟

نظر إليه العقيد **لانسر** ببرود، ولم يتحدث، وارتعش النقيب **لوفت**، وقال:

– سيدي.

تجاهله العقيد **لانسر**، وحاول النقيب **لوفت** أن يجعله يتحدث، فقال:

– عندما لا تفكر في الأمر، فلا يعد ذلك إهانة، ولكن عندما تتجاهل الواقع يكون ذلك مهيناً.

قال النقيب **لوفت**:

– نعم سيدي.

"انصرِفْ، أبقِ الملازم براكل تحت تصرفك، وابدأ البحث. لا أريد إطلاق النار إلا في حالة العداء الواضح والهجوم المباشر، هل فهمت الأوامر؟".

– نعم سيدي.

وأدى النقيب **لوفت** التحية العسكرية، وخرج من الغرفة.

ابتسم الرائد **هنتر**، وقال للعقيد **لانسر**:

– لقد قسوت عليه.

– وجب عليَّ أن أعامله بتلك الطريقة. إنه خائف، أعرف طريقة تفكيره. يجب أن يكون منضبطاً عندما يكون خائفاً، وإلا فسينهار. إنه يعتمد على الانضباط كما يعتمد رجال آخرون على التعاطف. عليك أن تركز على قضبان السكك الحديدية. أتوقع أن تقع تفجيرات جدية هذه الليلة.

وقف الرائد **هنتر**، وقال:

– أعتقد أن الأوامر قد وصلت إليكَ من العاصمة.

– نعم.

– هل..

قاطعه العقيد **لانسر**:

– أنت تعرف المسؤولين، وتعرف أفعالهم وردود أفعالهم. "يجب اختطاف القادة، وإطلاق النار عليهم، واحتجاز الرهائن وإطلاق النار عليهم، والمزيد من الرهائن والقادة" (همس) وتزداد الكراهية والألم، وتتسع الفجوة أكثر فأكثر.

تردد الرائد **هنتر** قبل أن يقول:

– هل حكموا على أي شخص في القائمة؟ وأشار إلى غرفة نوم العمدة **أوردن**.

– ليس بعد. أتتنا الأوامر بالقبض عليهم فقط.

– سيدي العقيد، أعتذر منك، ولكنك منهك جداً. عليك أن تستريح قليلاً.

غطى العقيد **لانسر** عينيه بيده، ثم استقامت كتفاه، وتصلَّبت ملامحه:

– لست مدنياً يا **هنتر**، ولدينا نقص في عدد الضباط، وأنت تعلم ذلك. أكمل عملك أيها الرائد، يجب أن أرى **كوريل**.

ابتسم الرائد هنتر، وفتح الباب:
– إن الملازم براكل يقف بالباب، ويريد رؤيتك.
– اسمح له بالدخول.
دخل الملازم براكل متجهماً وغاضباً:
– سيدي العقيد لانسر، أود لو..
– اجلسْ أيها الملازم، استرِخْ قليلاً، كن جندياً جيداً.
خفَّ غضب الملازم براكل، واسترخت عضلاته التي كان يشدها، فجلس، وأسند مرفقيه على الطاولة، وقال:
– أتمنى أن..
– لا تكمل لأني أعرف ما ستقوله. لم تعتقد أن الأمر سيمضي على هذا الشكل، لقد ظننت أنه سيكون أكثر هدوءاً.
– إنهم يكرهوننا، يكرهوننا بشدة.
ابتسم العقيد لانسر، وقال:
– أعتقد أنني أعرف ما تفكر فيه. سأقول لك شيئاً، يتطلب الأمر شباباً ليكونوا جنوداً جيدين، والشباب يحتاجون إلى فتيات صغيرات.
– هذا ما أردت قوله.
– هل تكرهك كثيراً؟
استغرب الملازم براكل، وقال:
– لا أعرف يا سيدي، أحياناً أظن أنها تشعر بالأسف على علاقتنا.
– وأنت تشعر بالتعاسة والحزن لهذا السبب.
– لا أحب هذا المكان سيدي.
– وهل كنت تظن أن العمل سيكون ممتعاً؟ لقد أُصيب الملازم توندر بالصدمة، وخرج وطُعن. يمكنني أن أعيدك إلى الديار برغم حاجتنا إليك هنا. أتريد العودة؟
– لا يا سيدي.
– عليك أن تسمع ما سأقوله لك، وآمل أن تفهمه، أنت لم تعُد رجلاً حراً، بل جندياً. لا أهمية لحياتك أو لراحتك، إن عشت فستكون لديك ذكريات، ولكن يجب عليك تلقي الأوامر وتنفيذها. وقد لا تعجبك معظمها، هذا ليس من شأنك، كان ينبغي أن يدربوك على هذا، وليس على الشوارع المملوءة بالزهور. كان ينبغي أن يبنوا روحك بالحقائق، لا أن يقودوها بالأكاذيب.
تغيرت نبرة العقيد لانسر، وبانت القسوة فيها عندما قال:
– أنت قبِلت الوظيفة يا ملازم، هل ستستمر في عملك، أم ستتركه؟ لا يمكننا أن نهتم بنفسيتك وروحك هنا.
نهض الملازم براكل:
– شكراً سيدي.
– والفتاة يا ملازم، يمكنك اغتصابها أو حمايتها أو الزواج بها. لا أهتم بكل ذلك، إن كنتَ ستطلق النار عليها عندما تُؤمر بذلك.
رد الملازم براكل، وقد ظهر التعب عليه:
– نعم سيدي، شكراً سيدي.

– من الأفضل أن تعرف ذلك، وأؤكد هذا الأمر لك. اذهب أيها الملازم، وأدخل **كوريل**. إذ لا يزال ينتظر في الخارج.

راقب العقيد **لانسر** الملازم **براكل** وهو يخرج من الباب. ودخل السيد **كوريل**، كان **مختلفاً**، ذراعه اليسرى مجبرة. لم يعد السيد **كوريل** البشوش الودود المبتسم، فالمرارة تظهر عليه، وعيناه تضيقان مثل عيني خنزير صغير ميت. قال السيد **كوريل**:

– كان ينبغي أن أزورك قبل مدة يا عقيد، لكن امتناعك عن التعاون معي جعلني أتردد.

– أتذكر أنني كنت أنتظر رداً على تقريرك.

– ما كنت أنتظره أكثر من ذلك بكثير. لقد رفضت إعطائي منصباً في السلطة، وقلتَ إنه لا قيمة لي. لم تهتم بوجودي في هذه المدينة قبل حضورك بوقت طويل، وتركت العمدة **أوردن** في منصبه، ولم تأخذ بنصيحتي.

– لو استمعتُ إليك وأبعدتُه فسنُعاني كثيراً، وقد تنتشر الفوضى أكثر مما هي الآن.

– هذا رأيك. إن هذا الرجل زعيم المتمردين.

– إنه رجل بسيط.

أخرج السيد **كوريل** بيده السليمة دفتر ملاحظات أسود من جيبه، ثم فتحه، وقال:

– يبدو أنك نسيتَ يا عقيد أن لي مصادر خاصة، وجب عليّ أن أبلغك بأن العمدة **أوردن** مسؤول عن كل ما يحدُث هنا. كان تلك الليلة في المنزل الذي قُتل فيه الملازم **توندر**. وعندما هربت الفتاة إلى التلال اختبأت عند أحد أقاربه، وبعد ذلك اختفت. والعمدة **أوردن** يساعد الرجال الهاربين، وأعتقد أنه موجود في كل مكان، مثل هذه المظلات الصغيرة.

قال العقيد **لانسر** بتسرُّع واندفاع:

– أتستطيع إثبات ما تقوله؟

رد السيد **كوريل**:

– لا أستطيع تقديم الإثباتات لك، ولكنْ بخصوص مقتل الملازم **توندر**، فإني أعرف ذلك. أما بشأن الفتاة، فإني أشك في الأمر. أتمنى أن تغير رأيك، وتكون على استعداد للاستماع إليَّ.

– ماذا تقترح؟

– قد يكون ما لديَّ أقوى قليلاً من الاقتراحات. لا بدَّ من اعتقال العمدة **أوردن**، ومقايضة حياته بأمن المدينة، ونربط موته بإشعال فتيل واحد، أو تفجير ديناميت واحد.

مدَّ السيد **كوريل** يده إلى جيبه، وأخرج كتاباً صغيراً، ثم فتحه ووضعه أمام العقيد **لانسر**:

– هذا يا سيدي رد المقر الرئيسي على تقريري، ستجد أنني مُنِحت سلطة معينة.

– أرى أنك قد تجاوزتني. (نظر إليه بكراهية) علمت أنك قد أُصبت، كيف حدث ذلك؟

– لقد وقعتُ في كمين في الليلة التي قُتل فيها ملازمك، وتمكَّنت دورية من إنقاذي، وهرب بعض الرجال في قاربي. والآن يا عقيد، بموجب السلطة الممنوحة لي (ولا أعلم هل تريد سلطة أقوى لتُنفّذ أوامري) يجب أن نحتجز العمدة **أوردن**.

ردَّ العقيد **لانسر**:

– إنه لا يزال في البلدة، ولم يهرب. لا نستطيع فعل شيء أكثر من ذلك.

وفجأةً وصل إلى مسمعَيْهما صوت انفجار من مكان بعيد، فتلفتا حولهما، وقال السيد **كوريل**:

– هذا هو الأمر أيها العقيد، ولا أحتاج أن أخبرك بما تعرفه. إن نجحت هذه التجربة، فسينتشر الديناميت في كل دولة تمَّ غزوها.

– وماذا تقترح؟

– سبق أن قلتُ لك، نضع حياة العمدة **أوردن** ثمناً للتمرد.

– وإذا لم يهتموا بذلك، واستمروا في تمردهم، وأطلقنا النار على أوردن؟
– عندئذٍ سيتبعه الدكتور وينتر. إنه الشخص الثاني في سلطة المدينة.
– لكنه لا يشغل أي منصب رسمي.
– إنه يحظى بثقة الناس.
– وبحسب اعتقادك، ما الذي سيحدُث بعد إطلاق النار على الدكتور وينتر؟
– نمتلك السلطة، ونكسر التمرد. بقتل القادة ينتهي التمرد.
سأله العقيد **لانسر** مستغرباً:
– أتعتقد ذلك؟
– يجب أن يكون الأمر كذلك.
هزَّ العقيد **لانسر** رأسه، ثم نادى الحارس، ففتح الباب، ودخل أحد الجنود:
– أيها الرقيب، لقد أمرتُ باعتقال العمدة **أوردن** والدكتور **وينتر**. تحققْ من وضع حراسة جيدة على **أوردن**، واجلب **وينتر** إلى هنا الآن.
– حاضر سيدي.
ثم نظر العقيد **لانسر** إلى السيد **كوريل**، وقال:
– آمل أنك تعرف ما تفعله. إني حقاً آمل ذلك.

الفصل الثامن

انتشرت الأخبار بسرعة في البلدة الصغيرة، فقد تمَّ تداولها بالهمسات عند الأبواب، بالنظرات السريعة والمعبرة. :تم اعتقال العمدة **أوردن**". وعمَّ البلدة فرح صغير هادئ، لكنه عنيف. يتبادل الناس الأحاديث بهدوء ويفترقون، وأثناء دخول الناس لشراء الطعام ينحنون للبائعين، وفي لحظة يتبادلون كلمات سريعة. انتشر الناس في الريف والغابات يبحثون عن الديناميت، وعثر الأطفال عليه أثناء لعبهم في الثلوج، لديهم تعليماتهم، فتحوا العبوات، وأكلوا الشوكولاتة، ثم دفنوا الديناميت في الثلج، وأخبروا والديهم بمكانه. وفي مكان بعيد في الريف، التقط رجل أنبوباً، وقرأ التعليمات، وتساءل هل سيعمل الديناميت؟ أشعله، ورماه، ثم ركض بعيداً، وبدأ بالعد، كان عده سريعاً، فانفجر الديناميت بعد ثمانٍ وستين ثانية. وقال: "إنه يعمل"، وهرع بحثاً عن المزيد من أصابع الديناميت.

وكأن الناس اتفقوا على إشارة ما. دخلوا البيوت وأغلقوا الأبواب، وهدأت الشوارع. وفي المنجم يقوم الجنود بتفتيش كل عامل قبل دخوله، يعيدون التفتيش المرة تلو الأخرى، كان الجنود يشعرون بالتوتر، وظهر ذلك في خشونة تعاملهم مع العمال الذين كانوا ينظرون إليهم، ولمعة فرح صغير عنيف تتألق في عيونهم.

في غرفة الاستقبال بقصر العمدة **أوردن** كانت الطاولة نظيفة. وقف جندي أمام غرفة نوم العمدة، بينما تجلس **آني** على ركبتيها أمام موقد الفحم. رفعت عينيها إلى الحارس، وقالت بغضب:

– ما الذي ستفعلونه به؟

ولم يرد الجندي. فُتح باب المنزل، ودخل جندي يقبض ذراع الدكتور **وينتر**. تركه في غرفة الاستقبال، ووقف الجندي عند الباب. رحب الدكتور **وينتر** بـ **آني**، وسألها:

– كيف حال صاحب السعادة؟

أشارت **آني** إلى غرفة النوم:

– إنه هناك؟

– أصِحَّته جيدة؟ أيعاني شيئاً؟

– لا يبدو عليه ذلك، سأرى إن أمكنني إخباره أنك هنا.

مشت إلى الحارس، وكلَّمته بعجرفة:

– أخبر صاحب السعادة أن الدكتور **وينتر** هنا، أتسمعني؟

لم يرد الحارس عليها، ولم يتحرك من مكانه، ولكن الباب فُتح، وظهر العمدة **أوردن**. تجاهل الحارس وتجاوزه، فتردد الحارس، وأراد أن يوقفه، ولكنه لم يفعل، قال العمدة:

– شكراً **آني**، لا تبتعدي كثيراً، فقد أحتاج إليكِ.

– لن أبتعد سيدي، أود أن أسألك عن السيدة، هل هي بخير؟

– إنها في الداخل تمشط شعرها، أترغبين في رؤيتها؟

تجاوزت **آني** الحارس، وقبل أن تدخل غرفة النوم وتغلق الباب، قالت:

– نعم.

نظر العمدة **أوردن**:

– أهناك شيء يا دكتور؟

ابتسم الدكتور **وينتر** بسخرية، وأشار إلى الحارس:

– أعتقد أنني رهن الاعتقال. صديقي الذي يقف هناك أحضرني إلى هنا.
– كان سيحدُث هذا عاجلاً أم آجلاً، والآن ما الذي سيفعلونه؟
تبادل الرجلان نظرات طويلة، وعرف كل منهما ما يفكر به الآخر، وقال العمدة أوردن:
أنت تعلم. خرج الأمر عن السيطرة، ولا يمكنني إيقافه حتى لو أردت ذلك.
قال الدكتور وينتر:
– أعلم ذلك، ولكنهم لا يعلمون.
ثم تابع حديثه بفكرة ظلت تراوده:
إنهم شعب مهووس بالزمن، والزمن يقترب من نهايته، لديهم قائد واحد ورأس واحد، ويحسبوننا مثلهم. قَطْع عشرة رؤوس منهم سيدمرهم، ولكننا شعب حر. لدينا عدد من الرؤوس يساوي عدد شعبنا، وفي وقت الحاجة يظهر القادة بيننا مثل الفطر.
استقرت يد العمدة أوردن على كتف الدكتور وينتر، وقال:
– شكراً لك. أعرف ذلك، ولكن من الجيد أن أسمعه منك، لن يسقط أفراد شعبنا، أليس هذا صحيحاً؟
ثبَّت نظره على وجه الدكتور وينتر. فطمأنه الدكتور:
– لن يسقطوا، سيصبحون أقوى بالمساعدات الخارجية.
ساد الغرفة هدوء قطعه صوت احتكاك معدني، صدر من بندقية الحارس عندما لمست أحد الأزرار، وقال العمدة أوردن:
– أريد أن أتحدث إليك يا دكتور، وقد لا أتمكن من ذلك مرة أخرى. هناك أمور مخجلة في ذهني.
سعل العمدة، وألقى نظرة على الجندي، ولكن الجندي كان ثابتاً في مكانه، ولم تبدُ منه إشارة إلى أنه سمع شيئاً:
– إذا اتبعوا ما اعتدناه منهم فسيقتلوني، ثم يحين دورك.
ظل الدكتور وينتر صامتاً، فأتبع العمدة:
– أليس هذا صحيحاً؟
– نعم، أعتقد أن هذا ما سيحدث.
ثم اتجه الدكتور وينتر إلى أحد الكراسي المذهَّبة، وبينما كان يهم بالجلوس لاحظ نسيجه الممزق، فمسحه بأصابعه ليعيد المزْق إلى مكانه، وجلس بهدوء، فتابع العمدة حديثه:
– كنت أفكر في الهروب، والتوسُّل إليهم لئلا يقتلوني، هذه الأفكار تجعلني أشعر بالخزي والخجل.
– ولكنك لم تفعل.
– نعم.
– ولن تفعل ذلك.
– لن أقوم بذلك، ولكنني فكرت في الأمر.
قال الدكتور وينتر بلطف:
– وكيف تعرف أن الجميع لم يفكروا فيما فكرت فيه؟ وهل تعرف هل فكرتُ أنا في ذلك أم لا؟
قال العمدة:
– أتساءل عن سبب اعتقالك، أعتقد أنهم سيقتلونك أيضاً.
حرَّك الدكتور وينتر إبهامَيْه بحركة دائرية وهو ينظر إليهما:

– أظن ذلك، وأنت تعلم أنه سيحدُث.

– يا دكتور، أنا رجل بسيط، وهذه بلدة صغيرة، ولا بدَّ أن تكون هناك شرارة تجعل الرجال الضعفاء ينفجرون. أنا خائف، ومُرتعب جداً. فكرت في كل ما يمكنه إنقاذ حياتي، اختفت هذه الشرارة، وفي بعض اللحظات أشعر بها كنوع من النشوة، وذلك ما أشعر به الآن، وكأني أكبر وأفضل كثيراً مما أنا عليه. هل تعرف يا دكتور فيمَ أفكر؟

ابتسم العمدة وهو يجول في ذكرياته:

– هل تتذكر المدرسة يا دكتور، وما قاله سقراط، سيقول شخص ما: ألا تخجل يا سقراط من مسار الحياة؟ قد يفاجئك بنهاية لم تتوقعها. وأجيبه: أنت مخطئ، لا ينبغي للرجل الجيد أن يحسب فرص العيش أو الموت، وكلُّ ما ينبغي له أن يفكر فيه هو هل ما يفعله، أصواب أم خطأ؟

اعتدل الدكتور وينتر في جلسته، وأكمل ما كان يقوله العمدة أوردن:

– تمثّل دور الرجل الصالح أو الشرير، ولا تقوم بذلك بشكل صحيح. لم تكن باحثاً جيداً عن الفرص، لقد أخطأت في رفضك أيضاً.

ضحك العمدة أوردن:

– أتتذكر؟

– أتذكره جيداً، أعتقد أني نسيت سطراً أو كلمة. كان ذلك في حفل التخرج، وكنت متحمساً بشدة، ونسيت أن تدخل ذيل قميصك، وبقي في الخارج، وكنت تتساءل عن سبب ضحكهم.

ابتسم العمدة أوردن، وامتدَّت يده إلى الخلف ليتحقق من طرف قميصه إن كان مفكوكاً أم لا، وقال:

– لقد كنت مثل سقراط، هاجمت مجلس المدرسة، وصرخت في وجوههم، وكنت أراها وهي تحمرُّ.

ضحك الدكتور وينتر، وقال:

– احمرَّت وجوههم لأنهم كانوا يكتمون أنفاسهم ليمنعوا أنفسهم من الضحك. كان قميصك مفكوكاً.

ضحك العمدة، وسأله:

– كم مرَّ على ذلك؟ أربعون عاماً؟

– ستة وأربعون.

تسلَّل الحارس الذي كان يقف عند غرفة النوم، واتجه نحو الحارس الذي يقف عند الباب الخارجي، وتحدَّث كل منهما إلى الآخر من زاوية فمه، كما يفعل الأطفال في المدرسة حين يتهامسون:

– كم أمضيتَ في مناوبتك هذه؟

– طوال الليل، بالكاد أستطيع إبقاء عينَيَّ مفتوحتين.

– أنا أيضاً، ماذا سمعتَ عن زوجتي في القارب البارحة؟

– إنها تسأل عنك، وتقول إنها قد سمعَتْ أنك أُصبت. إنها لا تكتب كثيراً.

– أخبرها أني بخير.

– طبعاً، سأكتب لها ذلك.

رفع العمدة أوردن رأسه إلى السقف يتذكر، وبدأ يتمتم:

– إممم، عجباً هل سأتذكَّر؟ كيف تسير الأمور؟

حثه الدكتور وينتر على المتابعة:

– والآن أيها الرجال.. والآن أيها الرجال الذين أدَانُوني..

دخل العقيد **لانسر** الغرفة بهدوء. جزع الحرس عندما سمعوا الكلمات، وتوقف العقيد يستمع إليهم، ونظر العمدة **أوردن** إلى السقف ساهماً يحاول تذكر الكلمات القديمة:

والآن، أيها الرجال الذين أَدانُوني، سأمنحكم نبوءة، ستقتلونني، ولكن بعد موتي مباشرة..

قاطعه الدكتور **وينتر**:

– الرحيل.

نظر العمدة **أوردن** إليه:

– ماذا تقول؟

قال الدكتور **وينتر**:

– الكلمة هي (الرحيل)، وليست (الموت)، لقد ارتكبت الخطأ نفسه من قبل، لقد أعدت ارتكاب الخطأ الذي وقعت فيه قبل ستة وأربعين عاماً.

– لا إنها (الموت). أنا على يقين من ذلك.

ولمح العمدة أوردن العقيد لانسر واقفاً. فسأله:

– أليست الكلمة هي (الموت)؟

قال العقيد **لانسر**: (الرحيل)، إنه بعد رحيلي مباشرة.

قال الدكتور **وينتر**:

– أصبحنا اثنين ضد واحد، الكلمة هي (الرحيل). أنت تكرر خطأك.

ثبَّت العمدة **أوردن** نظراته إلى الأمام، وكان هائماً في ذاكرته، وكأنه لم يكن في المكان، وتابع:

– (... سأمنحكم نبوءة، ستقتلونني، لكن عقاباً أشد من الذي أنزلتموه بي ينتظركم، بالتأكيد بعد رحيلي).

أومأ الدكتور **وينتر** والعقيد **لانسر** برأسيهما للعمدة **أوردن**، يحاولان مساعدته على التذكر؛ فتابع قائلاً:

– (قتلتموني لأنكم أردتم الفرار من المتهم، ولم ترغبوا في تقديم حساب عن حياتكم).

هرع الملازم **براكل** إلى الغرفة صارخاً:

– **العقيد لانسر**.

قال العقيد:

– شششش.

ومد يده ليوقفه، فتابع العمدة **أوردن** بهدوء:

– (ولن يكون الأمر كما تظنون، بل على العكس تماماً) –علا صوته، وازداد قوة– (سيكون عدد من يتهمونكم أكثر مما هو الآن).

وحرك يده كمن يخطب في الناس:

– (المتهمون الذين كنت أحاول منعهم عنكم لأنهم أصغر سناً، سيقلُّ شأنكم عندهم، وستشعرون بالإهانة منهم)

ثم عبَس واكفهرّ وجهه وهو يحاول أن يتذكر.

تدخل الملازم **براكل**:

– سيدي العقيد **لانسر**، لقد وجدنا الديناميت عند بعض الرجال، وقبضنا عليهم.

قال العقيد **لانسر**:

– اصمت.

واستمر العمدة **أوردن**:

– (إذا اعتقدت أنك بقتل الرجال تستطيع منع شخص من أن يدين حياتك الشريرة، فأنت مخطئ).

سكت، وعاد ينظر إلى السقف، ثم ابتسم خجلاً، وقال:

– هذا كل ما أستطيع تذكره.

قال الدكتور **وينتر**:

– إنه أمر جيد بعد ستة وأربعين عاماً، ولم تكن جيداً فيه قبل ستة وأربعين عاماً.

قاطعه الملازم **براكل**:

– سيدي، وجدنا الديناميت عند بعض الرجال، والنقيب لوفت..

قال العقيد **لانسر**:

– أعلِم النقيب لوفت أن يحرسهم. **أوردن** يجب أن تتوقف هذه الأشياء.

ابتسم العمدة **أوردن** عاجزاً:

– لا يمكنهم التوقف يا سيدي.

قال العقيد **لانسر** بقسوة:

– ألقيتُ القبض عليكَ لردع أفعالهم، واتَّخذتُكَ رهينةً ليحسّنوا سلوكهم.

قال العمدة **أوردن**:

– ذلك لن يوقِفهم. أنتم لا تفهمون، عندما أُصبح عبئاً على الناس سيتدبرون أمرهم من دوني.

قال العقيد **لانسر**:

– بصراحة، أخبرني ما الذي سيحدُث برأيك لو علِم الناس أننا سنطلق عليكَ الرصاص إن قاموا بإشعال فتيل الديناميت؟

نظر العمدة **أوردن** إلى الدكتور **وينتر**، وبانت الحيرة عليه، ثم فُتح باب غرفة النوم، وخرجت السيدة وهي تحمل سلسلة العمدة، وقالت له:

– لقد نسيتَها.

حنَى العمدة **أوردن** رأسه، وألبسته السلسلة، فقال:

– شكراً عزيزتي.

تذمرت السيدة:

– دائماً تنساها.

أمسك العمدة **أوردن** بالميدالية الذهبية المعلقة في السلسلة، والتي نُقِشت عليها شارة مكتبه، فقاطع العقيد **لانسر** تأمله، قائلاً:

– ماذا سيفعلون؟ أخبرني.

– أعتقد أنهم سيشعلون الفتيل.

– لنفترض أنك طلبت منهم عدم القيام بذلك.

قال الدكتور **وينتر**:

– سيدي العقيد، في هذا الصباح رأيتُ صبياً صغيراً يبني رجل ثلج، وكان ثلاثة جنود يراقبونه، علِموا أنه قلَّد زعيمك.

كان بارعاً، فدمروا ما صنعه، وركلوه بأرجلهم.

تجاهل العقيد **لانسر** ما قاله الدكتور **وينتر**، وكرر سؤاله للعمدة **أوردن**:

– لنفترض أنك طلبت منهم عدم القيام بذلك. فماذا سيفعلون؟

قال العمدة **أوردن** وكان النوم يغالِب عينيه، وبالكاد يستطيع فتحهما:

– لستُ شجاعاً يا سيدي. أعتقد أنهم سيشعلون الفتيل. آمل أن يفعلوا ذلك، ولكنْ إذا طلبت منهم التوقف، فسيشعرون بالأسى والأسف.

سألت السيدة:

– ما الأمر؟

قال العمدة **أوردن**:

– اصمتي لحظة، عزيزتي.

أصر العقيد لانسر:

– أتعتقد أنهم سيشعلون الفتيل؟

تحدث العمدة **أوردن** بفخر:

– نعم سيفعلون، سيشعلون الفتيل. كما ترى، فإني لا أملك خيار العيش أو الموت. ليس الأمر بيدي، ولكن لديَّ الفرصة لأن أختار كيفية حدوث ذلك. إذا طلبتُ منهم ألا يقاتلوا، فسيتضايقون، ولكنهم سيقاتلون، وإذا قلتُ لهم قاتلوا، فسيسعدون بذلك، وأنا لستُ شجاعاً جداً، ولكني سأمنحهم قليلاً من الشجاعة.

ابتسم وهو ينظر إلى العقيد **لانسر**:

– كما ترى، فإن الأمر سهل عليَّ بالنظر إلى أن النهاية ستكون واحدة.

قال العقيد **لانسر**:

– يمكننا إخبارهم أنك طلبت منهم أن يتوقفوا عن القتال، وأنك توسلت من أجل حياتك.

قاطعه الدكتور **وينتر** غاضباً:

– سيعرفون الحقيقة؛ أحد رجالكم في إحدى الليالي فقَدَ السيطرة على نفسه، وقال: إن الذباب غزا ورقة الصمغ، والآن يعرف الجميع كلماته، وصنعوا منها أغنية: الذباب غزا ورقة الصمغ. أنت لا تحفظ الأسرار أيها العقيد.

علا صوت صفير حاد من جهة المنجم، واندفع نسيم سريع يحمل الثلج الجاف، ويكوّمه على النوافذ، وعاد العمدة **أوردن** إلى اللعب بميداليته بأصابعه، ثم قال بهدوء:

– كما ترى سيدي، فلا شيء يمكن أن يغير ما سيأتي، سيتم تدميركم وطردكم. الناس لا يحبون أن يُقهروا، ولذلك لن يُقهروا، الأحرار لا يبدؤون الحرب، ولكنْ إن بدأت، فإنهم يقاتلون ولو هزموا. أما رجال القطعان التابعون للقائد، فلا يتمكنون من فعل ذلك. ولهذا ينتصر رجال القطعان في المعارك، ويفوز الأحرار في الحروب. فكر في الأمر سيدي، وستجده صحيحاً.

انتصب جسد العقيد **لانسر**:

– أوامري واضحة، الساعة الحادية عشرة هي الموعد النهائي. لقد أخذتُ عدداً من الرهائن، وفي حالة وجود أيّ نوع من أنواع العنف ضدنا، فسيُعدَم الرهائن.

قال الدكتور **وينتر** للعقيد **لانسر**:

– هل ستُصِر على تنفيذ الأوامر برغم علمك أنها ستقودكم إلى الفشل؟

تجهَّم وجه العقيد لانسر:

– ستنفَّذ أوامري أياً كانت النتيجة.

ثم أضاف موجّهاً حديثه إلى العمدة أوردن:

– ولكنني أعتقد يا سيدي أن إعلاناً منك قد ينقذ العديد من الأرواح.

قاطعته السيدة بصوت حزين:

– أتمنى أن تخبرني عن هذا الهراء الذي يدور هنا.

– إنه هراء يا عزيزتي.

وأوضحت السيدة للعقيد لانسر:

– لا يحق لكم اعتقال العمدة.

نظر العمدة أوردن إليها مبتسماً:

– لا، لا يمكنهم اعتقال العمدة. فالعمدة فكرة ابتكرها رجال أحرار، وستنجو من الاعتقال.

دوَّى صوت انفجار من بعيد. تردد الصوت من التلال، ثم عاد مرة أخرى، وأطلقت صفَّارة منجم الفحم نفيرها، ووقف العمدة أوردن متوتراً، ثم ابتسم. ودوَّى انفجار ثانٍ كان أثقل وأقرب، وتردد صداه من الجبال، فنظر العمدة أوردن إلى ساعته، ثم أخذ سلسلته وساعته، ووضعهما في يد الدكتور وينتر، وسأل:

– كيف سارت الأمور مع الذباب؟

قال الدكتور وينتر:

– لقد تغلب الذباب على ورق الصمغ.

نادى العمدة أوردن:

– آني.

فُتح باب غرفة النوم، وخرجت آني، سألها العمدة:

– هل كنتِ تسترقين السمع؟

شعرت آني بالحرج، وقالت:

– نعم سيدي.

دوَّى انفجار قريب، وعلَتْ أصوات انفجار زجاج، وتحطُّم أخشاب، وانفتح الباب بقوةٍ من خلف الحراس، فقال العمدة أوردن: –آني، ابقي مع السيدة. إنها في حاجة إليك، لا تتركيها وحدها.

ووضع العمدة أوردن ذراعه حول السيدة، وقبَّل جبهتها، ثم خطَا ببطء نحو الباب، حيث كان يقف الملازم براكل، واستدار إلى الدكتور وينتر، وقال بحنان:

– (كريتو، أنا مدين لأسكليبيوس بديك، هل ستتذكر سداد الدين؟).

أغمض الدكتور وينتر عينيه لحظةً قبل أن يجيب:

– سيتمُّ سداد الدين.

ضحك العمدة أوردن بأعلى صوته، وقال:

– لقد تذكرت. لم أنسَ تلك الخطبة.

ووضع العمدة أوردن يده على ذراع الملازم براكل. فتراجع الأخير مبتعداً عنه، وأومأ الدكتور وينتر برأسه، وقال:

لقد تذكرت (سيتم سداد الدين).

---

1)) غوردون سيتر فصيلة كلاب أسكتلندية، وتُعد من كلاب الصيد (المترجم).

2)) ساسكس (Sussex) مقاطعة تاريخية تقع في جنوب شرق إنجلترا.

3)) قصيدة "بعينيك الزرقاوين" (Mit deinen blauen Augen) للشاعر الألماني هاينريش هاينه. (المترجم).

4)) يقصد الشاعر الألماني هاينريش هاينه (1797 - 1856)، وهو واحد من أهم الشعراء الرومانسيين.